الملامـــــح الحضاريـــة

فـــى

الفتوحـــــات الإسلامـــية

" عصر النبوة "

تأليف

د. مغاورى عبيد منصور

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

بالزقازيق

دارهديل للنشر والتوزيع

الزقازيق

الطبعة الأولى

(١٤١٤هـ-١٩٩٣م)

دار هديل للنشر والتوزيـع
الزقازيق ش٢٣يوليو (البوستة)
ت.وفاكس:٣٤٠١٨٣
ص.ب: ٣٧٣

* المقـــدمـــة *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والأخرين ، وخاتم النبيين والمرسلين ، وصاحب الشفاعة العظمى يوم الدين ، وعلى أله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــــــــد ..

فإن دراسة التاريخ الإسلامى تُعد من الأمور الضرورية والمهمة لكل مسلم كيما يقف على مدى المعاناة التى واجهها النبى الكريم صلى الله عليه وسلم فى سبيل تبليغ الدعوة ، وما واجهه فى سبيل ذلك من صعاب ومعوقات استقبلها بصبر ومثابرة ، غير قانط ولا يائس ، فإنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرين .

وليعلم المرء أن دين الإسلام الذى جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الخاتم المتمم لكل الرسالات ، وأنه لانبى بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولاكتاب يُنزل بعد القرآن الكريم ، وأن الإسلام - لهذا - دين عالمى عام وشامل ، لم يختص بأمة ، ولم يستقل بمكان .

ومن أجل عالميته كان وجوب تبليغه إلى الكافة ، حتى يقفوا على سمو مبادئه ، ويتفهموا تفاصيل أحكامه ، وقد حمل النبى صلى الله عليه وسلم - فى حياته - عبء هذا البلاغ ومسئولياته ، فلم يُقبض إلى بارئه سبحانه إلا وقد هدى به العرب ، وخاطب به كل الملوك والأمراء من حوله "..... شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً "(١) مستجيباً

---

(١) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب.

فـى ذلك لأمر ربه سبحـانه "يأ أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَته وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللَّهَ لايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِين"(١).

ومن بعد وفاة النبى صلى اللـه عليـه وسلم تحمل الصحابة رضوان الله عليهم ومن تـابعهم هذا الأمر ، فلم يتوانـوا فيه ، ولم يُقصروا فـى إنفـاذه ، وانطلقوا فى كل سـبيل يحملـون كلمـة التوحيد ، ويصدعـون بهـا فـى كـل بقـاع الأرض كيما تتم نعمة الله على خلقه ، ويُوقفوهم على السبيل المستقيم .

ولم يكن ذلك بالأمر الهين الذى يتم إنجازه فى يُسْر أو فى قصير زمن ، بل تطلب الأمر منهم أن يُعدوا له ويتجهزوا ، فهم أمام أقوام يدينون بعقائد شتى منها ماهو سماوى ، ومنها ماكان من ابتداع البشر ، وكل يتمسك بما يعتقده ويحابى عنه ، بل ويدعوا إليه.

فكانت المهمة صعبة ، والعبء جسيم ، فلن تَتْرك هذه الأمم معتقداتهـا فـى يُسْر ، حيث تحكمت فيهم ماديات الحياة الدنيا وتـاهوا فـى زخارفهـا ، واقتتلـوا مـن أجل الإمـرة والتملك والسيادة ، لاعلـى المستوى الفردى فـى كـل شـعب وحَسْب ، بل على المستوى القومى والعقائدى.

وبسبب اختلاف الهدف بين هؤلاء الأقوام وبين المسلمين ، وتفوق الدافـع والمقصد عند المسلمين ، فقد كُتب لهؤلاء إحراز النصر والتفوق ، من غير أن يكـون القتـال هـو الهـدف الأساسـى لهـم ، إذْ كـان دافعهـم إلـى ذلـك نشـر كلمـة التوحيد وتبليغها وبيانها لكل من عداهم.

علـى أن هـذا السـبيل لـم يخـل مـن الاضطـرار إلـى القتـال وإراقـة الدمـاء بوجـه حق ، لكنـه قتـال إذا مـا قيست دوافعه وأبعاده ونتائجه بمـا كـان

---

(١) الأية : ٦٧ من سورة المائدة.

سائداً في الأمم كلها - أنئذ - ظهر أن المسلمين - حتى في قتالهم - كانوا يختلفون عن كل معاصريهم في أساليب الحرب وآدابها التي لم تظهر إلا في مدرسة الحرب الإسلامية.

وحتى في طريقة معاملة المغلوبين التي اختلفت كل الاختلاف عما كان سائداً من ذي قبل ، فالمسلمون حين يغلبون على البلاد بقوة السيف اضطراراً فإنهم لاينتقمون من أهلها المنهزمين ، ولا يبيدونهم - كما كان واقع الحال أنذاك - ولم يخرجوهم من ديارهم ، بل أتاحوا لهم فرصة العيش الكريم في ظل سيادة دولة الإسلام ، وتحملوا مهمة الدفاع عنهم ضد أعدائهم وتأمينهم في ممتلكاتهم ، غير مجحفين في ابتزازهم أو إنهاك قواهم المادية ، على غرار ماكان قائماً من قبل ، وإنما أخذوهم باليسير مما يقدرون عليه في مقابل تلك الحماية.

أما من دخل في الإسلام من الأهلين اختياراً فقد صار ككل المسلمين سواء بسواء ، له مالهم وعليه ما عليهم ، بغض النظر عن سابق عقيدته أو لونه أو عمله ، ولم يجعل المسلمون من أنفسهم - بحكم الغلبة والقوة - سادة يترفعون عن منزلة المغلوبين ، وإنما هو الإسلام الذي لا يضع للحاكم معايير خاصة يترفع بها على الناس ، ولا يفرق بين عربي وعجمي ، أو أبيض وأسود ؛ إذ الإيمان والتقوى هما أساس العمل والمعاملة.

وهذا يخالف ما يراه وقد حدا بي إلى هذه الدراسة ما ظهر من بعد عملية الفتوحات الإسلامية ، وما تراه حتى الآن من طعن على الإسلام والمسلمين وبخاصة في أمر الفتوحات الإسلامية ، مما يفترى به أصحاب الهوى وأتباع الضلالة ، متهمين المسلمين بأنهم استغلوا قوتهم وكثرتهم فأجبروا الناس على اعتناق دينهم ، والسير على طواعيتهم ، وكل ذلك مما لم يحدث شيئٌ منه.

رمضان الجمعة

كمـا شدنى إلى هذه الدارسة ماتراه فى أسلوب قتال هذه الأمم للمسلمين مـن بعد ، حيث تتحكم فيهم العصبية البغيضة والحقد الصريح ، فهم منذ الحروب الصليبية إلى الآن لايكفون عن العدوان على المسلمين ، مستخدمين فى حروبهم أشنع الأساليب وأبغضها. لايتورعون عن منكر ولا يكُفون عن التنكيل والفظائع فى غير ما إعمال لعقل أو تحكيم لضمير أو استلهـام لروح الإنسانية أو الأخلاق.

لكل هذا أردت - ماوفقنى الله تعالى - أن أكشف عن سماحة الإسلام والمسلمين الذين حملوه منذ بزوغ فجره وحتى الآن ، وأُثبت أنه دين يخاطب العقل فلا يحتاج إلى السيف ، وأن كثيرين من الأفراد والشعوب أتوا إليه راغبين ، بدون اضطرار من أحد ، لأنهم وجدوا فيه خلاصهم وأمنهم النفسى والدينى والإنسانى بل والقومى.

وأن كل مايرمى به هؤلاء الإسلام والمسلمين ماهو إلا أسقام جسام وعلل مستعصية كانت تحيط بكل الأقوام من قبل الإسلام ، حتى ضاق بها زرعاً الحاكم والمحكوم ، والظالم والمظلوم ، لكنهم لم يستطيعوا علاجها ، كما لم يجسروا على نسبتها إلى أنفسهم ، فلما جاء الإسلام بسماحته الشاملة وهدايته الساطعة تأبَّوا عليه ، ونسبوا كل سقطاتهم وزلاتهم إليه صدوداً عن الحق ، وإعراضاً عن الهدى والنور.

ولم يبق لهؤلاء الطاعنين على الإسلام إلا أن يُخرجوا من طوايا نفوسهم المريضة وقلوبهم العليلة كل هذا الحقد والغل تجاه هذا الدين الجديد والمبلغين له ، ولو أنهم أنصفوا أنفسهم وأنصفوا تاريخ الإسلام لكان من الأحرى أن يُقَيِّموا حياتهم الشاذة ، واصطراعهم البغيض ، وزيفهم البعيد الذى كانوا عليه قبل الإسلام ، بل وما يزالون عليه حتى عصرنا هذا ، ويقيسُوا كل هذا على ما

أرساه الإسلام فى أمته من مبادىء العدل والود الاجتماعى والسلام العام ، ويُنصفوا أنفسهم كيما يتبين لهم الرشد من الغى ، لكنهم – بكل أسف – فعلوا العكس ، وَصَمُّوا آذانهم وأصروا واستَكبُروا استكباراً.

كل هذا على الرغم من أن بعض المنصفين منهم قد أدركوا هذا الذى نرمى إليه ، وتفاعلوا مع الأحداث والرؤى التاريخية والعملية بمنطق معتدل فاختلفوا بذلك عن أولئك الطاعنين ، بل لقد وجدناهم يتلمسون حلولاً لمعضلاتهم وأسقامهم المستعصية من خلال الدرس الجيد والفهم الواعى لتاريخ الإسلام والمسلمين ، وبخاصة فى العصر الحاضر الذى طغت فيه المادة حتى ضاق أولئك بأنفسهم ، على الرغم من تمتعهم بكل مايحبون ، وامتلاكهم لكل مظاهر الحياة المترفة ، وما ذاك إلا لافتقارهم لإرهاف الروحانية التى تحقق التوازن والتوائم بين المادة والروح ، فأصبحوا لايجدون لكل هذا علاجاً إلا فى تعاليم الإسلام ورحابته ، حيث يهتم بالروح أولاً ، بحيث إذا صفت من كدرها واستوعبت ما أُنيط بها هان عليها مابعد ذلك ، وتفاعلت مع واقعها بما يضمن لها القرار والسكون.

كذلك تصديت فى هذه الدراسة إلى أسلوب العالَم المعادى للإسلام فى تعامله مع المجتمع المسلم ونظرته إليه وتعامله معه ، مظهراً مدى مايتمتع به الإسلام وأهله من روح السلم والعدل حتى فى طريقة قتال غير المسلمين ، حيث وضع المسلمون لأنفسهم فى الحروب أسلوباً مترفعاً عن الدنايا ، والتزموا آداباً لم يُسبَقوا إليها سواء فى طريقة القتال ، أو معاملة المغلوبين ، وغير ذلك مما تتجلى آثاره وتستلهم عبره من خلال دروس الفتوحات الإسلامية. وقد قسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول ، تسبق بمقدمة وتنتهى بخاتمة.

كان الفصل الأول: (العالم فى مطلع الرسالة) وفيه حاولت الوقوف على أحوال أمم العالم الدينية والاجتماعية إبان بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وما قبلها ، وكان يعنينى – فى هذا المقام – من الأمم الموجودة: العرب والفرس والروم ؛ باعتبار أن العرب هم القوم الذين كان منهم النبى الخاتم ، وأرضهم مستقر دولته ، ولغتهم نزل بها القرآن الكريم ، والفرس والروم باعتبارهما طرفى القوة والصراع العالمى حينذاك ، وهما من الناحية الجغرافية والسياسية يطوقان بلاد العرب ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الإطلالة أن رأينا هذه الأمم الثلاث قد تردت فى براثن الشرك والإلحاد وعبودية الفردو المادة ، إلى الدرجة التى تستأهل معها ضرورة البحث عن مخرج مما هى فيه ، ونجاة مما انزلقت إليه.

وفى الفصل الثانى: (عالمية الإسلام) ، حاولت بيان مفهوم هذه العالمية وأن الدعوة الإسلامية حين جاءت كانت هى أمل النجاة والإنقاذ لهذه الشعوب، لاتستغنى عنها أمة ، كما هى بنصوص دستورها وبتطبيق نبيها عامة وشاملة، غير مخصوصة بأمة ، ولا محدودة بمكان أو زمان ، كما كان شأن الدعوات التى سبقتها.

أما الفصل الثالث: (الإسلام وآداب القتال) فقد أبنت فيه ذلك الأسلوب الإسلامى الرفيع فى القتال ، حيث لم يدفع الإسلام أتباعه إلى القتال إلا حين يفرض عليهم ، وحينئذ يكون قتالهم مغايراً لما كان العالم يراه آنذاك من أساليب هى أقرب إلى الوحشية منها إلى الإنسانية ، بحيث عانت الشعوب كثيراً من جراء حروب لادافع لها ولا طائل من ورائها إلا حب السلطان والغلبة فى غير ما إعمال لعقل فى تناول الوسيلة أو تفهم الغاية ، إلى أن جاء

الإسلام فهذب الطريقة وراعى الدافع ، وهو أسلوب جديد لم يقتن ولم يفطن إليه من قبل.

وفى الفصل الرابع: (لماذا الفتح ؟) حاولت الرد على سؤال يدور فى نفوس الطاعنين والحاقدين ممن لم يشرح الله صدورهم للإسلام ، فكشفت عن فلسفة القتال فى الإسلام التى هى حتى فى أثناء المعركة تميز بين المقاتل وغير المقاتل ، وتراعى حرمة النفس البشرية التى يجب ألا تزهق إلا فى حق.

كما حاولت الرد على شبهات المستشرقين حول دوافع الفتوحات الإسلامية واتهامهم المسلمين بماليس فيهم ، وتخيلهم دوافع حربية من عند أنفسهم ماكان لها فى نفوس المسلمين أدنى أثر ، ثم بينت شيئاً من أسباب هذه الادعاءات والافتراءات.

أما الفصل الخامس:(الإسلام والفتح السلمى) ، فقد قصدت فيه إلى التأكيد على حقيقة أن الإسلام قد اتخذ أسلوب المسالمة والدعوة السلمية بأكثر من طريق فكانت الهجرة النبوية وما لازمها من أحداث ، وصلح الحديبية وما كان فيه من تنازلات ، وفتح مكة بهذه الصورة السلمية الرائعة ، كل هذا والمسلمون لايضمرون ثأراً ولا انتقاعاً ، ولا يقصدون إلى التشفى بمن قهروهم، وإنما كان جل همهم مصروفاً إلى إيصال الدعوة إلى كل الناس ، متناسين فى سبيل ذلك كل ما حاق بهم من قبل ، ثم جاء إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم كتبه إلى ملوك العالم وأمرائه يدعوهم إلى الإسلام كطريق مباشر لمخاطبة هؤلاء علهم يستمعون إليه ويقصدون إلى الهدى الذى جاءهم به ، ولو كان المسلمون كما ادعى المفترون والطاعنون لكان الحال على غير هذا ، بل ولكان السيف هو لغة التخاطب بين المسلمين وغيرهم من الأمم، وكل هذا مما لم يكن شيىء منه ، بل فوق هذا أرسيت قواعد وظهرت

ملامح جديدة لأساليب القتال يستحيل على هؤلاء أن يفهموا أبعادها ، إذ هم مع كل هذا يكيدون للإسلام والمسلمين ، ويتربصون بهم فى كل حين !.

وإنى إذ ألتمس لعملى هذا أسباب القبول أسأل الله عزوجل التوفيق والسداد ، وأستميح تاريخنا الإسلامى عذراً إن قصر بى الجهد فى مناقشة بعض أحداثه ، كما استميح القارىء عذراً إن بدا تقصير أو خطأ ، فكل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون .. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

دكتور

مغاورى عبيد منصور

الفصل الأول

حاجة البشرية للرسالة

العالم فى مطلع الرسالة

لقد شاءت إرادة الله عزوجل أن يتمم مخلوقاته بهذا الإنسان الذى استخلفه فى الأرض ، وسخر له كل ما فى الكون لمنفعته ، وعلمه أسماء الأشياء كلها ، كى يُسهل له أمر حياته فى هذا الكون ، جاعلاً إياه أسمى من ملائكته النورانيين الذين لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، مُميزاً له بالعقل الذى يحكم به فى الأشياء ، ويتخير به بين البدائل ، ليصير بعقله المدرك للحقائق فوق الملائكة ما اتبع طريق الحق وأعمل العقل ، وفى ذلك كله يقول الحق تبارك وتعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلَ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُون * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمْ * قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ "(١) وقوله تعالى "وَلَقَدِ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَات وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"(٢) ، وقوله: "الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ "(٣).

---

(١) الآيات: ٣٠ - ٣٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٧٠ من سورة الإسراء.

(٣) الآيات: ١-٤ من سورة الرحمن.

ثم أتم الله نعمته على بنى البشر فلم يكلهم إلى ما استودع فيهم من العقول ، وإنما أرسل إليهم الرسل والأنبياء من أنفسهم وبلسانهم يحملون لهم الهداية والشرائع التى تقتن لهم أسلوب الحياة ، وتفتح أعينهم وآذانهم على عظمة الخلق وقـدرة الخالق الذى هو حقيق بأن يقدس ويعبد وفى ذلك يقول ربنا عزوجل: " وَمَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً "(١) ، ويقول: " رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. "(٢).

وهكذا تعاقبت الرسل فى بنى البشر مذ خلق الله آدم عليه السلام ، وجاءت جميع الشرائع والكتب السماوية المنزلة على الرسل على تعاقبها تدعوا الأقوام إلى توحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به ، وتنظم لهم أمور دينهم ودنياهم وتحدد علاقة الأفراد فيما بينهم ، بما يكفل للأمة صلاح الحال وانتظام الحياة.

غير أن كل الرسالات التى سبقت دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كانت محلية مخصوصة بأقوام بعينهم محدودة بزمان لايمتنع أن يدعها الناس بانقضائه ، ولما كانت سنة الله فى خلقه أن يتدرج بهم إلى الصلاح دائماً فقد تمم هذه الشرائع والرسالات برسالة التوحيد الخاتمة والواضحة الدائمة التى تُتمم كل ما سبقتها فتبنى عليه وتضيف إليه ، ألا وهى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ليكون بذلك آخر الرسل إلى عالم البشر ، وخاتم النبيين من إخوانه الذين سبقوه .

ويتنزل عليه القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولاً ، والذى يحتوى على أخبار المتقدمين وأنباء اللاحقين ، لتتم به العظة والعبرة ، وليحمل فى

---

(١) من الأية: ١٥ من سورة الأسراء.

(٢) الآية: ١٦٥ من سورة النساء.

طياته معالم الحق والنور والهدى لسائر بنى البشر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، ومن ثَم فقد تفضل الله بحفظه من أن يناله ما لحق بالكتب التى سبقته من تحريف أوضياع أو نسيان مابقى على وجه البسيطة إنسان ، وصدق الله العظيم إذ يقول: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(١).

ويجيىء مبعث النبى صلى الله عليه وسلم على حين فترة قد بَعُدت بين الرسل ، حتى خالفت الأمم واشتطت ، وبعدت عن مبادى كل الرسالات السابقة ، بل ازداد البشر شططاً بتركهم عبادة الخالق الأعلى إلى عبادة الأوثان والأصنام والنجوم والكواكب وغير ذلك من الحيوانات والجمادات ، ويحيا الناس فى غيبوية مرهقة تشذُّبهم إلى إفساد حياتهم والكون الذى يحتويهم ، وتُذرى بعقولهم التى ركبها الخالق سبحانه فيهم ، وحينئذ يتخلفون عن المنهج التعبدى الخلافى الذى خلقوا من أجله.

فى هذه الفترة أرسل الله تعالى نبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم ليأخذ بأيدى البشرية من التردى والشذوذ إلى الفواق والفهم ، وُصُولاً بها إلى حياة أسمى وأفضل ، وتوجيه عبوديتهم إلى من لاتجب العبودية إلا له.

ويجدر بنا الآن أن نعرض لأحوال البشرية قبيل مبعث النبى محمد صلى الله عليه وسلم بشيىء من التوضيح الموجز لتتبين مدى الشطط والانحراف فى حياتها ، وانعدام المثل العليا ، وبُعد ما بينها وبين الديانات السابقة من رباط ، مما جعلها فى أمس الحاجة إلى من يأخذ بيدها إلى طريق النور ، ويهديها إلى بر النجاة.

---

(١) الآية: ٩ من سورة الحجر.

وهم أبناء إسماعيل عليه السلام ، وأول من توارث ملته ومنهاجه الذى جاء به من توحيد الله وعبادته والوقوف عند حدوده وتقديس حرماته . وفى مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتقديسه ، واحترام شعائره والزود عنه ، والقيام بخدمته وسدانته(١).

وأرض العرب هى شبه الجزيرة التى تقع فى الجنوب الغربى من قارة أسيا فى موقع جعلها فى الماضى والحاضر وسطاً بين أقطار الدنيا ، تأقلم العرب فيها مع بيئتهم الصحراوية المنفرة ، وسخروها فيما يفيد حياتهم ، بل انطلقوا منها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً تجاراً نشطاء يبيعون ويبتاعون مستفيدين من كل من يتصلون بهم.

وقد امتاز العرب من بين أمم العالم وشعوبه فى العصر الجاهلى بأخلاق ومواهب تفردوا بها ، أو فازوا فيها بالقدح العلمى ، كالفصاحة ، وقوة البيان، وحب الحرية ، والأنفة ، والفروسية ، والشجاعة ، والحماسة فى سبيل العقيدة، والصراحة فى القول ، وجودة الحفظ ، وقوة الذاكرة ، وحب المساواة ، وقوة الإرادة ، والوفاء ، والأمانة(٢).

فلما طال بهم العهد ببعدهم عن زمن النبوة والأنبياء ، وأثرت فيهم بيئتهم التى جعلتهم فى شبه عزلة عن المجتمعات من حولهم ، انحط مستوى فكرهم وإعمالهم لعقولهم ، فخلطوا الحق بالباطل ، وتمسكوا باليسير من

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطى (الدكتور): (فقه السيرة) ، ص٣٩ طبعة دار الفكر القاهرة ، الطبعة السابعة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(٢) الندوى: السيد أبى الحسن على الحسينى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٦ مطبعة دار نهر النيل بالقاهرة الطبعة الثامنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

شعائر أجدادهم واستحدثوا الكثير من البدع ، حتى غَيَّبُوا أنفسهم فى وثنية مُفزعة ، وتقلبوا فى أمراضٍ اجتماعية مخجلة.

وابتدأ عهدهم بالوثنية منذ اجتلبها لهم عمرو بن لحى الخزاعى من أرض العمالقة بالشام ، حيث كانوا يصنعونها ويتخذونها للعبادة ، فسألهم: ما هذه الأوثان التى أراكم تعبدون؟ فقالوا: هذه أصنام نعبدها ، نستصرها فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، فقال: ألا تعطوننى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذى تفد إليه العرب؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة ، فكان أول صنم وضع بمكة (١).

وأخذ أهل مكة على غراره يصنعون أصنامهم ، ويتقربون إليها ، ويخرجون بها فى حروبهم ، وانسلخوا بذلك عن عقيدتهم التى ورثوها عن أبائهم من الأنبياء حتى دخلوا فيما دخل فيه كل الناس من الضلال وقبح المعتقدات.

ومع كل هذا كانوا يعلمون أن للكون إله يدبره ، وأن فوق بشريتهم معبود أعلى يجب له التقديس ، ولذلك اتخذوا هذه الألهه المصنوعة بأيديهم كىْ تقربهم إلى الله زلفى وقد قَرَّعهم القرآن الكريم بعد نزوله على غفلة عقولهم وعمى بصيرتهم ، وجاء ذلك فى مواضع كثيرة من كتاب الله عزوجل منها قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّه "(٢) ، وقوله: " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ

---

(١) اليعقــــوبى (احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبى ج١ ص٢٥٤ ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ، البوطى: فقه السيرة ص٤٠ .

(٢) من الآية: ٧٨ من سورة الزخرف.

لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمِ "(١) ، وقوله تعالى: " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّـه.."(٢).
ومع ذلك فقد أحبطتهم عقولهم المتردية عن أن يتمسكوا بعبادة الله عزوجل ، أو يتلمسوا هذى دياناتهم السماوية السابقة فزاغوا كل الزيغ ، وانحرفوا إلى طريق الضلال البعيد.

لكن لم يمنع هذا أن يبقى من بين العرب قلة يتمسكون بالحنيفية الأولى ، ويرفضون أن تجرفهم تلك المبتدعات الباطلة ، حيث هُدُوا بفطرتهم إلى أن المعبود بحق أسمى مما يتعبد به قومهم ، وسُمى هؤلاء " بالحنفاء " ، وكان من أبرزهم حوالى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ونشأته: " ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة وبجيرا الراهب " ، (وكان أعملهم زيد بن عمرو بن نفيل)(٣) الذى كان فى الجاهلية يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: " يامعشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمر بيده ، ماأصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى " ثم يقول: " اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته ".

وقد دخل قوم من العرب فى اليهودية ، وأخرون فى النصرانية ، تاركين عبادة الأصنام بسبب مجاورتهم لليهود فى شمال بلادهم وشرقها ، أو للنصارى فى الشام والحبشة ، وبذلك انتقلت قبائل وعشائر كثيرة إلى هاتين الديانتين بسبب تأثرهم بالجوار ، كما تزندق بعض العرب وهم قليل.

---

(١) الآية : ٩ من سورة الزخرف.

(٢) من الآية:٦١ من سورة العنكبوت

(٣) الدكتوران: عبدالشافى محمد عبد اللطيف ومحمد جبر أبو سعده : التاريخ الإسلامى منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، ص٥٠ القاهرة١٩٨٧م.

ولا يفوتنا هنا أن ندرك أن العرب إذا كانوا قد باعدت الأزمان بينهم وبين عقيدتهم الأولى ، واجتلب زعيم منهم أصناماً تُعبد من دون الله ، فإن العرب رغم كل هذا لم تنته الحنيفية فيهم ، بل ظل يحملها ويدعو إليها هؤلاء النفر القليلين الذين كانوا أشبه بضياء ضئيل خافت وسط فلاة شاسعة سادها ظلام مطبق إلى أن جاء نور الله وسراجه الوضاء محمد صلى الله عليه وسلم فأخرجهم جميعاً مما هُم فيه ، وأخذ بأيديهم إلى النور الظاهر الذى أفاض على الدنيا والبشرية بأسرها.

أما عن حياة العرب الاجتماعية فإنها كانت - تبعاً لمعتقداتهم الفاسدة - تموج بالصراعات والحروب بين القبائل بعضها البعض سواء أكان الداعى لها مُلِحاً أم خاملاً ، وكثيراً ماستمرت حروبهم تلك أشهراً وسنيناً وخسروا فيها الكثير من فِتْيانهم وممتلكاتهم ، فإذا ما هدأ لهيب الحرب انكبوا على شرب الخمر الذى يذهب بعقولهم فلا يدرون ما يقولون أو يفعلون ، ثم يأوون إلى خدور البغايا يطلبون عندهم الملذات ، وتمضى ساعاتهم الداعرة وهم فى حال من غياب العقل والدين والقيمة.

وأدهى من ذلك أنهم نظروا إلى الإناث من بناتهم على أنهن مثار لجلب العار والفقر والعيلة ، فتفشت فيهم عملية وأد البنات خلاصاً مما يظنون ، وكان الرجل يصطحب ابنته ويحفر بيده فى التراب ليواريها فيه وهى حية فى مشهد لا إنسانى مشين تترفع عن إتيانه أخس الحيوانات ، حتى صار ذلك عرفاً سائداً بينهم ، إذ الحياة - فى نظرهم - لاتقتضى إلا وجود الولد الذى يشتد عوده ، فيحمى زمار العشيرة ، ويصول فى جولات حروبها ضد الأعداء كما أنه لايتحصل من ورائه عيلة ولا عار!.

غير أن هذا كله لم يمنع أن تبقى فى العرب بعض شيم الإنسانية وقيمها الرفيعة ، فكانوا على كرمهم للضيافة ، وحمى الجوار والزود عنه بكل غال ، كما اتصفوا بالشجاعة والفصاحة وقوة البيان ، حتى ما تزال أشعارهم بين أيدينا إلى الآن نتناقلها خالفاً عن سالف.

وفى مجال الحرب والتخاصم استفاد العرب من قوة ماوقع بينهم من عداوات، حتى اهتدوا فى أواخر سنيهم فى الجاهلية إلى حماقة ماكانوا يفعلونه فى حروبهم التى لاتنقطع ، فعقدوا حلفاً فيما بينهم نددوا فيه بضراوة الحرب وشناعة الخسارة ، حتى هداهم تفكيرهم إلى الاتفاق على منع القتال وتحريمه فى الأشهر الحرم ، حتى تتاح لهم فرصة الراحة وإعمال العقل فيما تنشأ بسببه الحروب والصراعات.

ويحضر النبى صلى الله عليه وسلم فى صباه هذا الحلف ، ويظل يذكر ما دار فيه إلى ما بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم فيباهى بذلك الحلف ، ويفاخر بحضوره إياه فيقول: "لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ، ماأحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت"(١).

وبانعقاد هذا الحلف أدرك العرب أنهم قد قطعوا شوطاً فى طريق العقلانية والحكمة ، حتى وجدناهم يمتدحون عقد هذا الحلف فى كثير من كلامهم ، منه قول الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم	وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا	يعزبه الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا	أباة الضيم نمنع كل عار

١- محمد سعيد رمضان البوطى (الدكتور): فقه السيرة ص ٧٦ طبعة سابعة دار الفكر القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

(٢) الشيخ/ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ١٠ طبعة دار إحياء التراث ، طبعة ثالثة ١٩٨٠م.

وقوله أيضاً:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمرٌ عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم(١)

وهذه الأبيات من بحرين مختلفين ، مما يدل على تعدد الجلسات التى قيل فيها الشعر امتداحاً لحلف الفضول ، وأنه كان مثار حديث العرب وإعجابهم بهذه النقلة العقلية التى انتهوا إليها.

وإذا كانت تلك هى الصورة العامة لحياة العرب الاجتماعية والدينية والخلقية ، فإن حياتهم من الناحية السياسية كانت بهذه المثابة ، إذ هُم مايزالون يحيون حياة القبيلة أو العشيرة بما فيها من تعددية وانعدام التآلف فى شبه كيان سياسى "دولة" بمفهومه السياسى العام.

وحتى فى جنوبى بلاد العرب وبخاصة فى اليمن التى شهدت منذ القدم نظام الدولة وهيئتها ، فلم يكن ذلك قائم قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم إذ تسلطت على هذه الدولة سطوة المستعمرين وذوو النفوذ من الفرس والروم الذين أخضعوا هذه البلاد وما يواجهها فى الجانب الغربى (الحبشة) لسلطانهم، وحاولوا فرض سيطرتهم السياسية والدينية على أهليهم.

واشتد الصراع الدينى بخاصة بين الفرس والروم فى بلاد اليمن التى عانت كثيراً بسبب هذا التنازع، ومن جرائه قام الملك الحميرى اليهودى "يوسف ذو نواس" باعتناق اليهودية هو وقومه ، وازداد شططا فى ذلك حينما حَفَرَ الأخدود بنجران وأحرق فيه النصارى الذين رفضوا مشايعته على دينه.

---

(١) الأستاذ/ أحمد حسين: نبى الإنسانية ص٣١٥ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٠م.

كما ازداد اشتعال الحروب الدينية بين مسيحيى الحبشة يساندهم القيصر فى جانب ، وعرب اليمن الوثنين فى جانب آخر ، حتى كان آخرها ما اعتزمه الأحباش من هدم الكعبة المشرفة بمكة نكاية فى عرب شبه الجزيرة الذين لايدينون بالمسيحية ، ومحاولة لضرب مواردهم الاقتصادية التى تأتى عن طريق حج العرب إلى الكعبة ، وكانت تلك المحاولة فى العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتم الله على العرب فضله ، فأعاد الأحباش داخرين مقهورين ، وحمى بيته الذى جعله مثابةً للناس وأمناً.

نفس الحال كانت قائمة فى شمال بلاد العرب ، حيث تقوم مملكتى المناذرة والغساسنة العربيتين اللتين عملتا لحساب جيرانهما الأقوياء (الفرس والروم) بدلاً من أن تتحدا فى مواجهتهما ، وكان ذلك ممكنا لو حاولتا ، لكنهما فوق ذلك ناصبت كلتاهما الأخرى العداء ، بل سُخِّرت كل منهما كى تكون حاجزاً منيعاً بين إخوانهم من العرب فى شبه جزيرتهم وبين من يعملان لخدمتهم وهما دولتى العصر الفرس والروم.

ومن ثم فإن العرب – وهذه حالتهم – كانوا فى أمس الحاجة إلى من ينقح لهم أسلوب حياتهم ويخرجهم مما هم فيه ، ويجمع شملهم فى ظل دولة أُتيحت لها من قبل كل المقومات الجغرافية والجنسية واللغوية ، وأصبح الجو مهيأ لبدء الرسالة التى تحقق لهم كل هذا ، بل وتَرْفعهم إلى أعلى درجات المجد والقوة وسيادة العالم من حولهم.

أما عن غير العرب ، فقد كانت دولتى الفرس والروم المتجاورتين فى الشمال تتحكمان فى كل مقاليد الأمور ، وتوجهان سياسة الدول والشعوب من حولهما ، فى حين كانت كلتاهما تنتحر انتحاراً فى سبيل حياة الفوضى والزندقة وضياع الأخلاق وافتقاد المثل الكريمة فى الحياة ، كما سيأتى.

ثانياً الفـــــرس:

كانت دولة الفرس تقوم على الكثير من المبادىء الفوضوية الهدامة ، تتعدد فى ظلها المعتقدات الخرافية التى يضعها الملوك والسادة بأنفسهم ، أو يدعيها كل من تسول له نفسه الإدلاء بدلو فى هذا السبيل ، فكان الأكاسرة ملوك فارس يدعون أن الدم الإلهى يجرى فى عروقهم ، مما حدا بالشعب أن ينظر إليهم كآلهة ، ويعتقد أن فى طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً ، فكانوا يقدمون القرابين بين أيديهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ، لاتجرى أسماؤهم على ألسنتهم ، ولا يحق للشعب مجالستهم ، ولهم حق فى كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون به لأحدٍ من فضول أموالهم الوفيرة وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قِبَلَهُم إلا السمع والطاعة.(١)

وخصص الفارسيون بيتاً معيناً هو "البيت الكيانى" ، كانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق فى أن يلبسوا التاج ويجْبُوا الخراج ، ينتقل فيهم هذا الحق كابراً عن كابر ، وأباً عن جد ، لاينازعهم هذا الحق إلا ظالم ، ولاينافسهم إلا مُدَّعٍ أثم ، فكانوا يدينون بالملك والوراثة فى البيت المالك لايبغون به بدلاً ، ولا يريدون عنه محيصاً ، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، وإذا لم يجدوا ذكراً ملكوا امرأة.

وكان من ذلك أن ملكوا "أزدشير" وهو صبى لم يتجاوز السابعة بعد موت أبيه شيرويه ، كما ملكوا " فرخ زاد خسروا " وهو طفل بعد أبيه كسرى

---

(١) الــطبرى: أبى جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ): تاريخ الرسل والملـــوك ج٢ ص٣٩،٤١ تحقـــيق محمد أبــــو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م ، النـــدوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٣٥.

أبـرويز ، ومن النساء ملكت " بوران " بنت كسرى، ثم أختها " أزرمى دخت " بنت كسرى ، فـى حين لـم يخطر لهم أن يملكوا أحداً مـن كبـار قوادهـم وهـم كثيرون ، منهم رستم وجابان وغيرهما(١).

وقد بالغ الفارسيون فى تمجيد قوميتهم ، ورأوا أن فضلها يعم الجميع من حولها ، ولأن الله قد خصها بمواهبَ ومِنَح لم يشترك معها فيها غيرها من الأمم ، تلك الأمم التى انحطت عن مستوى الفارسيين ، وصارت فى قمة الانحطاط والازدراء من وجهة نظرهم، وهم (أى الفرس) فى ذات الوقت يترددون فى المحرمات والرذائل إلى أحط درجة ، فكان زواجهم بالمحرمات – مثلاً – ظاهرة طاغية فى مجتمعهم ، يعتبرونها تقربا لله ، لايداخلها أدنى ألم فكانوا يتزوجون من غير استثناء(٢) ، حتى إن كان الرجل ليتزوج ابنته والأخ أخته.

ونتيجة لهذه الإباحية المطلقة والحرية التى أدت إلى فوضى شاملة ، ظهر"مانى" فى القرن الثالث الميلادى بدعوته إلى السلبية وترك الملذات ، والامتناع عن النكاح حتى ينقطع النسل ويقترب يوم القيامة الذى يخلص الناس من شرورهم ويقضى على حياتهم ، وقد قتل "مانى" على يد الدولة بسبب تعاليمه ، واتُّهم بأنه مُخرِّب العالم ، فى حين تمسك البعض بدعوته حتى زمن الفتح الإسلامى لبلاد الفرس .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٢ ص٢١٨، ٢٣٢، ٢٣٣ " بتصرف " ، الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٣٦.

(٢) الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٣٤ نقلاً عن كتاب: " إيران فى عهد الساسانيين" ترجمة: د/ محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩.

على أن العامة ثاروا على التعاليم المجحفة ، ودعتهم طبيعتهم الشريرة وغرائزهم المستباحة إلى ممارسة ما كانوا عليه من قبل ، ومن ذلك أن " يزدجرد الثانى " الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج ابنته ثم قتلها ، وأن " بهرام جوبين " الذى حكم فى القرن السادس كان متزوجاً بأخته(١).

ثم ازداد الأمر شيوعاً حتى ظهرت دعوة " مزدك " (٢) إلى أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، ينبغى أن يعيشوا سواء ، وأن المال والنساء وغيرهما مما تحرص النفوس على حفظه وحراسته من أهم ما تجب فيه المساواة ، فأحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركاء فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ فحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين ، وصادفت من قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط ، فأخذ قباذ(٣) وكان زنديقاً يناصرها ، ونشط فى نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها فى الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات(٤).

وقد نتج عن كل هذا أن "افترص السفلة ذلك واغتنموا ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لايستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك ، وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلاً

---

(١) محمد فتح الله الزيادى: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ص٨٣ ، طبعة أولى بيروت ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

(٢) عاش مزدك فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى.

(٣) من ملوك الفرس فى أواخر القرن السادس الميلادى ، وصفه الطبرى بالزندقة.

(٤) الندوى: ماذا اخسر العالم بانحطاط المسلمين ص٣٥.

حتى صاروا لايعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه... !(١).

على أنه إذا كانت الدعوة المزدكية قد اتهمت من قبل بعض الأكاسرة ورجال الدين الزرادشتى بالانحراف والتهور ، فإن جوهرها وروحها لم يكن سوى تلبية لأمال الجماهير الكادحة والمعذبة عساها تجد فى هذه الدعوة ما يُنسيها ما عانته من شقاء ، ويعوضها شيئاً عن حرمانها وشظف عيشها بسبب جشع الأكاسرة ورجال الدين ، إذن فقد كان من المصلحة والحكمة أن تعتبر المزدكية إحدى النذر الثانية بعد دعوة مانى إلى السلبية الكاملة فى الأمة الفارسية ، فراراً من ترف السادة وفجورهم.

وعلى الرغم من محاولة كسرى أنور شروان سد الثغرات النافذة التى أحدثتها المزدكية فى شعوب الفرس وبلادهم ، وما قام به من التنكيل بمزدك وأتباعه والمعجبين بدعوته ، على الرغم من كل هذا فإن سوء النُظُم الاجتماعية كان من أهم العوامل فى القضاء عليها، وإزالة عينها وأثرها(٢).

من كل ما سبق يتضح بجلاء أن دولة الفرس التى قاسمت الروم حكم العالم والسيطرة عليه ، كانت من داخلها تموج بالغليان والاضطراب نظراً لعدم وجود عقيدة سماوية تجمع شتات تلك الشعوب وتحد من سطوة الأباطرة وتسلطهم على أممهم ، إضافة إلى فساد كل النظم والقوانين وأعمال الإدارة ، مما جعل البلاد نهباً لكل أمير أو امبراطور من الناحية المادية ، ومشاعاً لكل من يهديه فكره إلى دعوة إصلاحية حتى ولو كانت هدامة لانتشال الناس مما غُيبوا فيه.

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج٢ ص٩٣.

(٢) عبد الحميد بخيت (الدكتور): ظهور الإسلام وسيادة مبادئه ، ص٦ ، طبعة دار المعارف بمصر (الطبعة الثانية) ١٩٦٧م.

وبالجملة ، فقد كان الفرس يعيشون أسوأ حالة عرفتها البشرية ، حيث انتشرت فيهم الملل والنحل الفاسدة ، من صابئة تعبد النار ، وثانوية تقول بإلهين إله الخير وإله الشر ، ومزدكية إباحية تجعل مقومات الحياة كلها شيوعية بين الناس ، بما فى ذلك النساء اللاتى جُعلن شركة بين الناس كالماء والنار والكلأ ، ونتيجة لتأييد الملوك لهذه الدعوات وتحمس الشبان والمترفين والفجرة لها عم الفساد فى تلك الديار ، وصار الرجل لايعرف ولده ولا المولود أباه ، ولايستطيع المرء أن يمنع الآخرين من إتيان أهله فى داره"(١).

(١) محمد فتح الله الزيادى : انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ، ص٨٠.

ثالثاً الـــــــروم:

● أما الروم البيزنطيون فكان العهد قدَ بعُد بهم عن زمان نبى النصرانية عيسى بن مريم عليه السلام ، وتفرقوا أحزاباً وشيعاً دينية يصارع كلاهما الآخر ويختلف معه ، ويحاول القضاء عليه بكل سبيل ، أو إخضاعه لسلطانه وعقيدته ، مرتكباً فى سبيل ذلك كل مايعن له من أساليب القتل والعسف والظلم، مما جعلهم – آخر الأمر– كمن لايدينون بشىء.

ولم تكن الحياة فى دولة الروم سوى ضروباً متنوعة من العنف والقهر السياسى والدينى حتى افْتُقِدَتْ المُثل العليا ، ولم يبق للديانة الحقة أوحب الوطن أثر فى نفوس الشعوب ، إذ كانت الأثرة هى كل ما فى قلوب هؤلاء وأولئك. ويُلْمح " ستيفن رنسيمان " فى كتابه(١) إلى ما كان عليه حال الإمبراطورية البيزنطية فيقول: " على أن الموقف ازداد سوء أثناء القرن السادس ، إذ أن حروب جستنيان استغرقت زمنا طويلاً ، وكلفت الدولة أموالاً باهظة ، وأثارت ارتباكاً فى سياسته الدينية ، وترتب عليه ازدياد الضرائب ، ولم يحصل رعاياه فى الشرق مقابل ذلك على امتيازات أو حقوق...".

وكانت الخلافات المذهبية تمزق أوصال الامبراطورية البيزنطية –قبيل امتداد حركة الفتوحات الإسلامية إلى أجزائها– وتؤثر على قوتها تأثيراً خطيراً إذ جعلت من أجزائها وولاياتها وحدات متفرقة ممزقة ، يتمنى الكثير من سكانها الانفصال عنها والتخلص من ظلمها واضطهادها(٢) ، وقد كان

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ج١ص٢٥تعريب الدكتور:السيدالبازالعرينى(ط.ث)بيروت١٩٨١م

(٢) أحمد إبراهيم الشريف (الدكتور): الفتوحات الكبرى فى عهد عمر بن الخطاب، ص١٠٠ ، بحث منشور فى مجملة منبر الإسلام ، رجب ١٣٨٥هـ–اكتوبر ١٩٦٥.

الأباطرة بعد مجلس "خلقدونية" فى سنة(٤٥١م) يشعرون من أعماق قلوبهم بنفور بلاد شرقى البحر المتوسط من الحكم الرومانى وما ينطوى عليه ذلك من الخطر السياسى على عاهليتهم(١).

ويصبح من الجدير بنا - الآن - أن نقف على أسباب هذا الاختلاف المذهبى ونشأته فى دولة الروم البيزنطيين ، وهى الدولة التى كانت حتى ذلك الوقت تدين المسيحية ، فى حين كان العالم بأسره من حولها تتنازعه أفكار ومعتقدات شتى قل أن تتوحد أمة على عقيدة واحدة.

ولقد بدأت بذور هذا الخلاف حين ثار الجدل بين المسيحيين على طبيعة المسيح ، وتعددت أراؤهم فى ذلك ، حتى صاروا جماعات وشيع تتناحر فيما بينها ، وكل جماعة تُدلِّلْ لرأيها وتَنْتَصر له ، ثم تمثلت هذه الجماعات فى مذاهب مستقلة متصارعة كان من أهمها على المسرح السياسى فى الإمبرطورية:

النســـاطـــرة:

نسبة إلى " نسطوريوس " المولود فى كيليكية الشرقية ، حيث عاش فى دير [illegible]ب أنطاكية ، ثم رُقىّ إلى أسقفية القسطنطينية بناء على اقتراح الإمب[illegible]ور تيودوسيوس الثانى الذى أمل بذلك أن يأتى من أنطاكية بأسقف شبيا [illegible]رحنا فم الذهب ، وكانت وجهة نظره القول بأن للمسيح طبيعتين ، حيث يوجد فى المسيح شخص إلهى "Logos" وشخص بشرى ، يتصلان أحدهما بالآخر بانسجام تام فى العمل ، ولكن ليس بتلك الوحدة التى تظهر فى شخص واحد

---

(١)كيرك: موجز تاريخ الشرق الأوسط ص١٥، ترجمة:عمر الإسكندرى، القاهرة (د.ت).

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة قد وُوجهت بالاعتراض إلا أن نسطوريوس جمع حوله أتباعاً عديدين شكلوا بسرعة جماعة النساطرة الحقيقيين(١) ، وقد مال إلى هذه الفكرة المارونيين (٢) ، والبابوية (٣) ، وتبعها الأباطرة كى ينالوا رضا الكنيسة وعطف البابا ومناصرته إياهم. ومن ثم فقد صاروا يعرفون "بالملْكَانيِّين" من قبيل الأزدراء -أى رجال الملك- ، وكان لهذه التسمية مايبررها ؛ إذ أن بقاءهم توقف على ماكان للإرادة الامبراطورية من قوة رهيبة(٤) ، وكانت كثرة أصحاب هذا المذهب تقيم فى نواحى الجزيرة ودجلة ، وزاد نشاطهم فيما يلى هذه البلاد من فارس.

المونوفيزيتيون:

ويأتى اسمهم من الكلمتين اليونانيتين "مونوس" "MONOS" ، وتعنى: واحد ، مضافة إلى كلمة "فيزيس" "PHYSIS" وتعنى: الطبيعة ، ويسمى مذهبهم "بالمونوفيزى" "MONOPHYSITISM" ، وهم القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح وقد أصبح هذا المذهب أعظم انشقاق تعرضت له الكنيسة الشرقية بعد النسطورية ، "وبتعبير دقيق كان أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا بمبدأ الطبيعتين (الإلهية والبشرية) فى الشخص الواحد

---

(١) فيليب حتى (الدكتور) : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج٢ ص٤١١ ، ترجمة : د/جورج حداد و عبد الكريم رافق ، بيروت ١٩٥٨م.

(٢) سعيد بن بطريق (البطريرك): التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ص١٤، بيروت ١٩٠٩م.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور): أوربا العصور الوسطى ج١ص١٢٠ ، مكتبة الأنجلو المصرية (الطبعة الخامسة) ١٩٧٢م.

(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص٢٦.

للمسيح الــذى وضعه مجمــع خلقدونية فى عام (٤٥١م) ، واتخذوا شعارهم " الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة " ، وبتعبير أخر اعتقد أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأن المظهر البشرى والإلهى فى المسيح لايشكل سوى طبيعة مركبة واحدة"(١).

وقد انتشر هذا المذهب فى أغلب ولايات الدولــة البيزنطيـة التـى تبعد عن الكنيسة فى القسطنطينية ، فساد سورية وأرمينية ومصر ، وأقيمت لأتباع هذا المذهب كنيسة خاصة منفصلة سميت "بالكنيسة اليعقوبية" نسبة إلى مؤسسها " يعقوب برادايوس " والذى عرف أيضاً بـ "يعقوب البرادعى" أسقف الـــرهافى القرن السادس الميلادى(٢).

الهــــراطقـــة:

وهم فريق ثالث سمى بهذا الأسم من قبيل الأزدراء ، وهم الذيـن ينكــرون ألوهية المسيح ، ويُقرون بأنه بشر ، وأمه مريم ، من دون أن ينسبوا اتصالها بالبشر ، وأنه لم يصلب حقيقة ، بل مُثل لهم شخص شبيه به ، وقد حاز هذا الفريق استنكاراً من جميع الطبقات حتى الذى على نفسه ، ولم يملك لفكرته شيوعاً على غرار الحزبيـن السابقين ، وكان أتباعه يُسمون "بالأبيونيين" أى الفقراء ، وهم فى الغالب من قدماء اليهود المتنصرين.

وإزاء هذا الاختلاف الدينى فقد كان القياصرة يميلون مـع الطرف القوى بقصــد كسبه إلى صفهم ، فى محاولة للخروج من الهُوة السحيقة التى كانت

---

(١) فليب حتى: تاريخ سورية ج٢ ص٤١٢

(٢) رنسيمان: تاريخ الحـــروب الصليبية ج١ ص٢٥ ، د/ سعيد عـــاشـــور : أوربـــا العصـــــور الوسطى ج١ص١٢١.

الإمبراطورية تتردى فيها ، حتى إن جستنيان الذى نيطت به مهمة إنقاذ الإمبراطورية من عثرتها جعل جُلَّ اهتمامه السيطرة على الناحيتين السياسية والدينية ، وتسفيه مقولة المونوفيزيتيين ، واتخاذ ٠نهج القائلين بطبيعتين للمسيح ، إلا أنه صُدِم حينما رأى زوجته تيُودورا تميل إلى المذهب المونوفيزى(١) مما حدابه إلى اتباعها ومخالفة منهجه السابق.

ولم تفلح أى سياسة فى التوفيق بين المذاهب ، على الرغم من محاولات الاسترضاء التى بذلها القياصرة ، إذ كان المونوفيزيون أنفسهم لا يميلون إلى التفاهم مع الإغريق لما يُكنونه نحوهم من بُغض وكراهية ، فذهبت كل محاولات الاسترضاء والتوفيق هباء ، وحلت محلها اضطهادات شنيعة ووحشية ، اتسعت بسببها الهوة بين الفريقين إلى الأبد (٢).

وعلى الرغم من أن هذا الجدل كان دينياً محضاً فإن رجل الشارع فى تلك الأحقاب أولى اهتماماً خاصاً بما يجرى من حوله من هذا الجدل ، إذ كان يجد فيه متعته وسلواه التى لم يضارعه فيها سوى ألعاب السيرك(٣).

وهكذا سادت الفوضى ، وساء حال الأمبراطورية البيزنطية التى كنا نظن أنها تختلف عن نظيرتها الفارسية لاعتناقها ديناً بعينه وشريعة ثابتة ، وهاهى تنتحر من داخلهاأكثر من مما كان يدور فى دولة الأكاسرة.

---

(١) د/ سعيد عاشور: نفس المرجع ج١ص١٢٠ ، بتلر الفريد. ج (الدكتور): فتح العرب لمصر ج١ ص٣ ، تعريب: محمد فريد أبو حديد ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩م.

(٢) كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص١٦.

(٣) المرجع السابق.

ولانجد توضيحاً لمسألة الإنقسامات المذهبية فى دولة الروم أكثر من هذا الذى يَسُوقه جورجى زيدان ، إذ يقول: "..... فقد كان الروم حوالى القرن السادس للميلاد فى منتهى التضعضع لتعدد الفرق ، وتشعب المذاهب ، وخصوصاً فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين ، والمشيئة والمشيئتين ، وأكثر اختلافهم على الألفاظ ، والجوهر واحد"(١). ثم يستطرد فيبين أن المسألة كانت نوعاً من الكوميديا الساخرة ، ويقول: "فكان الامبراطور وأهل دولته يقولون إن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، وأما رعيته فى مصر والشام ، فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحد ، وهم اليعاقبة ، وفى زمن هرقل سعى البطريرك " اثناسيوس " بطريرك اليعاقبة فى منبج فى التوفيق بين الطائفتين ، فخاطب الإمبراطور فى ذلك ، ونصب مذهباً متوسطاً بين القولين وهو أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة "

ويظهر من شكل هذا الحل الوسط أن المسألة لاتعدو أن تكون هراءً محضاً إذ أصبح المسيحون على هذه الدرجة من السذاجة والبلاهة بحيث يختلفون إلى مذاهب متناحرة ثم يرضيهم حذف كلمة أوزيادة أخرى فى أى من التراكيب اللفظية ، مما يؤكد أنهم يتمسكون بخلافات هشه ، لاتنبنى على عقيدة صحيحة أو تفسيرات دينية سليمة يمكن الاقتناع والإقناع بها ، بل هو الخلاف لذاته وحسب !. ثم تكتمل التمثيلية التى رسمها الامبراطور وبطريقى منبج والقسطنطينية حيث وافق الإمبراطور على هذا الحل الوسط ، لكنه استمهل أثناسيوس حتى يخاطب بطريق الإسكندرية "بيروس" السورى الأصل ولم يدر الإمبراطور أن كلا البطريقين كانا قد اتفقا على الفكرة من قبله ،

---

(١) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ج١ ص٤٦ ، طبعة بيروت (د.ت).

وأخيراً تمت الموافقة ، ونشر الإمبراطور بهذه المعتقدات منشوراً عاماً قَبِلَهُ أكثر الأساقفة الشرقيين ، عدا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الأساقفة ، وفى مقدمتهم أسقف عمان ، وسائر أهل الكنيسة الملكية ، فشق ذلك على الإمبراطور فعمل على الأنتقام من الذين لم يقبلوا منشوره ، وفيهم جانب عظيم من الروم ، فأصبح الانقسام مزدوجاً: الامبراطور وبطارقة القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشيئتين ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر داخلية سورية ومصر حزب آخر والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة حزب ثالث.

فضلاً عن طوائف أخرى غير هذه ، منهم الخياليون الذين يقولون إن المسيح لم يصلب حقيقة ، وإنما صلب رجل آخر مكانه ، والأكيغاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء ، وهم يشهبون الخوارج ، ثم إن اليعاقبة أيضاً كانوا أقساماً، مما يطول شرحه(١).

ولم تكن هذه آخر محاولات التوفيق ؛ بل كانت آخر محاولة هى التى قام بها الأمبراطور هرقل(٦١٠-٦٤١م) حيث حاول جَمْعَ مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق بينها ، كيما يستطيع جمع شتات امبراطوريته التى مزقتها الحرب الفارسية الأخيرة،والتى تطلبت أموالاً جمة لطرد الفرس،وباتت خزائن الدولة خاوية، وتقررت صورة التوفيق بين المذاهب بأن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كُنْهِ طبيعة المسيح، وعما إذا كانت له طبيعة واحدة أم طبيعتان،ولكنهم عليهم أن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد ، وقد عُرِف ذلك بالمذهب المنوثيلى(٢) ، واتخذ مذهباً رسمياً

---

(١) جوورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ج١ ص٤٦.

(٢) الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٧.

للدولة.

وصمم هرقل على إظهار هذا المذهب الجديد على ما عـداه مـن المذاهـب ، مُتخذاً فى ذلك كافة السبل ، ولكن الناس ثاروا عليه ، وعارضوا طريقته ، ولـم يُفْلح فى رأب الصدع الذى أصاب أركان الدولة ، وسـادت الاضطرابـات وعَمَّت الفوضى ، وما كان ذلك كله إلا بسبب خلـط السياسـة بـالدين ، وتسـلط كـل مـن الأباطرة ورجال الكنسية على الأمور فى كل مكان.

(١) الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٧.

والخلاصة: أنه لما كانت البشرية جميعها فى ذاك الوقت قد بلغت حداً كبيراً من التردى والزيغ ، وَعَبَد النـاس كل شـىء حتى الملوك والكهان ، وأصبح لسان حالهم ينطق بما هم فيه من انتكاسة خطيرة وردة مستطيرة ، فقد حباهم الله بفضله ، ومَنَّ عليهم برسالة التوحيد الخاتمة التى أنزلت على النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد والمخلوقات إلى عبادة المعبود الخالق ، ولتتنسم البشرية أريج الحق وكرامة الإنسان.

ويلمح السير توماس أرنولد هذه الملحوظة عن حياة البشرية وبخاصة شعوب المسيحية قبل الإسلام ومدى حاجتها إلى من ينتشلها من الهوان والضياع ، وأن هذا المنقذ كان هو الإسلام وتعاليمه السمحة الرفيعة ، فيقول أرنولد: "وزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحين أن حالة الكنيسة الشرقية التى تدهورت فى ذلك الوقت – من الناحيتين الخلقية والروحية – لابد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جواً روحياً أسلم وأصح فى ذلك الدين الإسلامى الذى جاءهم وهم فى أشد ماتكون الحماسة الغضة قوة وعنفاً ، وعلى سبيل المثال يتساءل "ملمان" " DEAN MILMAN "(١): ماذا كانت حال العالم المسيحى فى الأقاليم التى تعرضت لأولى غزوات الإسلام ؟ كانت الأحزاب الدينية يناوىء بعضها بعضاً ، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاماً وأكثرها غموضاً فيما يتعلق بما وراء الطبيعة فى العقيدة الدينية ، والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أو طيخوس واليعاقبة

---

(١) هو مؤلف كتاب: HISTORY OF LATIN CHRISTIANITY (تاريخ الكنيسة اللاتينية) الذى نقل منه أرنولد هذا المعنى.

يضطهد بعضهم بعضاً ، وقد استحكمت بينهم العداوة التى لاتفتر ولا تنقطـــع ، ولا نكـــون مبالغين فى الحكم على مساوىء الجدل الدينى إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم فى إسار الكفار ، إذ كان هذا عندهم أفضل من أن يجمع بينهم هدف مشترك فى سبيل الدفاع عن المسيحية التى تربط بينهم ، فكم من أناس لابد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم وكم كان يكون غريباً لو أن هـــؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا - وهم فى ضجرهم وحيرتهم - ملجأ من هذه المحاولات التى لاتنتهى عنـــد حـــد ولا تعرف اللين والتسامح فى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوحدانية مهما طُولبوا بالاعتراف ببعثه محمد ونبوته"(١).

فى وسط هذا الخضم الهادر من التمزق والشتات الدينى أصبح من يريد الحقيقة والأمر الجلى لايجد من يدله عليه ولا من يهديه إليه ، وكان الذى يخرج فى ارتياد العلم الصحيح ، وطلب الدين الحق يهيم على وجهه فى البلاد، ترفعه أرض وتخفضه أخرى حتى يأوى إلى رجال شواذ فى الأمم والبلاد ، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مُكَسَّرَة هشمها الطوفان(٢).

وتبرز هذه الحقيقة على وجه الخصوص فى العقود القليلة التى سبقت أو شهدت ميلاد النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخير شاهد على هذا ما كان

---

(١) السـير توماس أرنولد: الـدعـوة إلى الإسـلام (بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسـلامية) ، ترجمـة د. حسـن إبراهيم حسن د. عبد المجيد عابدين (طبعة ثالثة) القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) أبو الحسن الندوى: نفس المرجع ، ص٥٥.

من خبر سلمان الفارسى ، أكبر الرواد الدينيين فى القرن السادس ، والذى شرق وغرب فى البحث عن مُتدين حقيقى يهديه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل ، ومن الموصل إلى نصيبين ومنها إلى عمورية ، ويُوصى به بعضهم بعضاً ، حتى أتى على آخرهم ، ثم أدركه نور الإسلام وهو يتيه فى حلك الظلام.

ويحكى سلمان - رضى الله عنه - بعد إسلامه قصته هذه فيقول: "لما قدمت الشام قلت: من أفضل أهل هذا الدين ؟ (أى المسيحية) قالوا: الأسقف فى الكنيسة ، قال: فجئته فقلت: إنى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك ، وأتعلم منك ، قال: فادخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سَوْءٍ ؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له منها شيئاً اكتنزه لنفسه ولم يُعطه المساكين ، حتى جمع سَبْعَ قِلال من ذهب وورق ، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ذلك، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء ؛ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قالوا وما علمك بذلك ؟ قال سلمان: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه ، قالوا: دُلنا عليه ، فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءةً ذهباً وورقا ، فلما رأوها قالوا: والله لاندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، قال سلمان: فما رأيت رجلاً لايصلى الخَمْس أرى أنه أفضل منه وأزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، فأحببته حباً لم أحبه من قبل ، وأقمت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له: يا فلان ، إنى كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ماترى من أمر الله (أى الأجل) ، فإلى من توصى بى ، وما تأمرنى ؟ قال:

يابنى ، والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه فالْحَقْ به ، قال سلمان: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يافلان ، إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألْحَق بك ، وأخبرنى أنك على أمره، فقال لى: أقم عندى ، فأقمت معه فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له: إن فلاناً أوصى بى إليك ، وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله عزوجل ما ترى فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: يا بنى والله ماأعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته بخبرى وما أمرنى به صاحبى ، فقال: أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله مالبث أن نزل به الموت ، فلما حضرته الوفاة قلت له: يافلان. إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى وماتأمرنى؟ قال: أى بنى. والله ماتعلم أحداً بقى على أمرنا أمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية ، فإنه بمثل مانحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على أمرنا ، قال سلمان: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، وأخبرته خبرى ، فقال: أقم عندى ، فأقمت مع رجل على هدى أصْحابه وأمرهم ، واكتسبت ، كان لى بقرات وغنيمة ، ثم نزل به أمر الله ، فقلت له مثلما قلت لأصحابه من قبل ، وسألته عمن تصلح صحبتى به ، فقال: أى بنى. والله ما أعلم أحداً من الناس أصبح على ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرثين بينهما نخل ، به

علامات لاتخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل... الخ الرواية"(١).

فى هذه القصة التى حكاها سلمان الفارسى رضى الله عنه عدة دلائل مهمة

أولهـــا:

أن هذه الأمم على ماكانت عليه لم تخل من بعض رجال متدينين على شرائعهم السابقة ، يشبهون الحنفاء الذين كانوا ببلاد العرب قبل الإسلام ، وهؤلاء قد نبذوا الشرك والضلال ، وأيقنوا بوجود خالق مستحق للعبادة من دون الناس ، ومن دون هذا الزيغ والضلال المستشرى فى مجتمعاتهم.

وثانيها: أن الناس كانوا من حولهم ينظرون إليهم باحترام ومهابة لتدينهم وإعراضهم عن مظاهر الدنيا ، ويلقون بالصدقات بين أيديهم من غير أن يؤثر ذلك فى شئونهم الدينية ، بل كان مجرد هروب من أوحال وقعوا فيها ، فإذا ماضاقت أنفسهم بها لجأوا إلى هؤلاء النفر من المتعبدين يلقون بأدرانهم وأسقامهم بين أيديهم، فإذا مارجعوا إلى دنياهم هاموا على وجوههم كما كانوا من قبل.

وثالثها: أن هؤلاء الذين أووا إلى أنفسهم وتزهدوا فى الدنيا كان قد وصل إليهم بعض ماجاء فى الكتب السابقة المنزلة كالتوارة والإنجيل قبل أن يلحقها تحريف والتأويل ، فالتزموا به وعملوا له ، وعلموا أن الله مختتم رسالاته بنبوءة نبى يبعثه فى ذلك الزمان بأرض العرب.

وهذا ماأكدته قصة سلمان رضى الله عنه فى بحثه عن الحقيقة ، وما ورد على لسان نظيره عبد الله بن سلام رضى الله عنه الذى كان كتابياً

---

(١) أبو الحسن الندوى: نفس المرجع ص٥٧.

فأسلم؛ إذ أنــه لمـا نـزل قـول اللـه تعـالى: "الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ يَعْرِفُونَـهُ كَمَـا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُم لَيَكْتُمُون الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون"(١)، سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أكنت تعرف محمداً كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر ، بعث الله أمينه فى سمائه (أى جـبريل – عليـه السـلام –) إلىأمينـه فـى أرضـه (أى محمد صلى الله عليه وسلم) بنعته فعرفته، أمـا ابنـى فـلا أدرى مـالذى قـد كان من أمه(٢).

---

(١) الآية: ١٤٦ من سورة البقرة.

(٢) القـــــــــرطبى (أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى): الجامع لأحكـام القرآن ج١ ص٥٤٥ ، دار الريان للتراث، القاهرة (د.ت) ، البوطى: فقه السيرة ص٥٤.

بين الفرس والروم:

لم تكتف تانك الدولتان (الفرس والروم) بما كان يقطع فى أوصالهما من تجبر الأباطرة وعسفهم ، والتحزب الدينى البغيض ، وفقدان شعوبهما لأية هوية قومية أو رابطة دينية ، بل أخذت كلتاهما تناصب الأخرى العداء السافر ، حتى امتدت هذه العداوة إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولم يكن لها من سبب إلا التنازع على سيادة العالم ، إذا كانتا أكبر دول الأرض فى تلك العصور ، فأرادت كلتاهما الاستئثار بالسلطان من دون الأخرى(١)، واتصلت تلك العداوة إلى زمن الإسكندر الأكبر ، ثم اتصلت فى عصور الروم إلى أيام الإسلام.

ولزم هذا الصراع المستمر بينهما نفقات باهظة وثقيلة ؛ إما لإصلاح ما دمرته الحرب ، أو لإعداد العدة لقتال جديد ، ولم يكن ذلك ليتحصل إلا بفرض ضرائب جديدة باهظة تتحملها الشعوب المطحونه التى ما كان يكفيها الفائض من نفقات السادة ، فى حين لم يتحمل الأباطرة ورجال الدين من ذلك شيئاً ، إلا بعض ماتجود به الكنيسة من حين لآخر فى شكل تبرعات لمساعدة الملك فى حروبه.

وقد أثرت هذه السلسلة المتلاحقة من الصراعات بين الدولتين على قوة كلتيهما فى الداخل والخارج على السواء ، حيث "جرت كلتاهما الخراب على الأخرى بحروبها العوان"(٢) ، و "أضعفهم احترابهم عند الانتصار والانكسار

---

(١) جورجى زيـــــدان: تاريخ التمدن الإسلامى ح١ ص٤٢، ديورانت (ول وايريل): قصة الحضارة ح١٤ ص١٤٩ ، ترجمة: فؤاد اندراوس ، القاهرة ١٩٨٦م.

(٢) ول.ديورانت: قصة الحضارة ج١٤ ص١٥٢.

على السواء"(١) ، وسادت الفوضى أرجاءهما ، بحيث كان أمر الدفاع – في الغالب – موكولاً إلى أناس من المرتزقة الذين احترفوا هذه المهنة ، في حين انشغل الأباطرة والسادة ورجال الدين بأموالهم وضياعهم ، والاهتمام بزيادة ماتحت أيديهم منها ، وكل ذلك فى النهاية على حساب شعب مستضعف.

ومن السخيف فى أمر هذه الصراعات التى امتدت دهوراً طويلة أنها لم تَرْمِ إلى هدف دينى أو اجتماعى يُقيم الشعوب من عثرتها ، أو يُؤلف بين قلوبهم على يقين صادق تؤمن به ، بل كانت البشرية – متمثلة فى قطبيها الأساسيين آنذاك – تُدمر نفسها بنفسها كلما وجدت الأسباب أو حتى افْتُعلت افتعالاً من أجل إثبات الهيمنة والسلطان !.

ولسنا بصدد الحاجة إلى سرد تاريخ الدولتين العسكرى، بل يكفينا –هنا– الإشارة إلى أواخر أيامهما قبل الإسلام ليكون ذلك شاهداً لنا على أحوالهما، إذ أدرك كسرى فارس فى تلك الفترة مدى الضعف الذى تردت فيه دولة الروم ، وعجزهم عن استجماع قواهم ضد أعدائهم ، حتى وصل بهم الحال إلى الاستعانة بهرقل واليهم على إفريقية ، فدعوه لينقذ الإمبراطورية ويفتدى أملاكها ، غير أنه اعتذر محتجاً بكبر سنه(٢) ، وأرسل إليهم ابنه "هرقل الأصغر" حيث نودى به امبراطوراً فى عام (٦١٠م).

وقد تسلم البلاد وخزائنها خاوية لاتسمح بإعداد جيش يحارب الفرس ، فشرع فى محاولة لإصلاح الحال وتنظيم أمور الدولة ، غير أن الأكاسرة لم

---

(١) ل.أ.سيديو: تاريخ العرب العام ص١٦ تعريب: عادل زعيتر القاهرة (طبعة ثانية)١٩٦٩م ، ف.بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٥٠ ، ترجمة: حمزة طاهر ، دار المعارف بمصر (طبعة خامسة)١٩٨٣.

(٢) ول. ديورانت: قصة الحضارة ج١٤ص١٥٠.

يمهلوه لذلك ، وزحفوا على الشام سنة (٦١١م) وأتموا فتحها سنة (٦١٤م)(١) ، بعد أن استولوا على مدنها الواحدة تلو الأخرى ، وافتتحوا بيت المقدس ووصلوا إلى خلقدون(٢) ، ولم يحل بينهم وبين القسطنطينية إلا الأسطول البيزنطى الرابض حولها ، ومن ثم قصد الفرس إلى مصر فاستلبوها وفرضوا سيطرتهم عليها.

وكان الفرس فى غزوهم للبلاد قساة عتاة ، لم يراعوا حرمة للشعب الأعزل ولا رجال الدين والنساء والأطفال ، وقاموا فى كثير من الأحيان بمذابح جماعية وحروب إبادة ضد كل مسيحى أو بيزنطى ، حتى جعلوا الشام ومصر خراباً يباباً ، "إذا كان الفرس فى حروبهم غلاظ القلوب مادام السيف فى أيديهم، وكانت غلظتهم وحشية لايبررها عقل ، ولاتدعو إليها حاجة ، حتى كان يخيل إلى الناس أن جندهم لايمل من سفك الدماء"(٣).

جرى كل هذا وهرقل قابع فى عاصمته لايدرى من أمر نفسه شيئاً ، بعد أن بلغ به اليأس منتهاه ، واشتد الحصار على سكان القسطنطينية ، حتى مات أكثرهم من الجوع(٤) ، وَهمَّ الناس أن يفتحوا أبواب العاصمة للفرس ، فلما علم هرقل خاف أن يحدث ذلك ويسلمه الأهالى إلى عدوه ، فوجه رسالة إلى كسرى يُظهر فيها مدى العجز والخوف والشعور بخيبة الأمل ، فقال لكسرى: إن كل ماتريد أن تُلزمنى إياه من شيىء فأنا أُلزمه نفسى لك ، وانصرف عنى. فرد عليه كسرى قائلاً: إن أردت أن أنصرف عنك فاحمل إلى الفدية

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ج١ص٥٣، جورجى زيدان:تاريخ التمدن الإسلامى ج١ص٤٤

(٢) مدينة على الساحل الأسيوى للبوسفور تجاه القسطنطينية.

(٣) بتلر: فتح العرب ج١ ص٦٣.

(٤) سيرتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٤٨.

عنك وعن بلادك ، ألف قنطار ذهب وألف قنطار فضة ، وألف جارية بكر ، وألف فرس ، وألف ثوب ديباج ، وتكون هذه الفدية جارية عليك فى كل سنة، وتحملها إلىّ حتى أنصرف عنك ، واحمل إلى الساعة فدية هذه السنة ، وعجّل ذلك ولاتؤخره حتى انصرف عنك(١) ، فكتب إليه هرقل*: إنى أجبت الملك الرحيم إلى ماسأل وليس عندى فى هذا الوقت تمام الفدية التى سأل ، لأن الملك الرحيم قد مسك بيدى عن جميع أعمالى ، فإن أطلق الملك الرحيم يَدَىَّ فى أعمالى حتى أخرج الأموال وكل ماسأل ، أحمله إليه بعد أن ينظرنى الملك ستة أشهر ويؤمننى أن أدور البلدان وأجمع الأموال فرأيه الموفق ، فأجابه كسرى إلى ماطلب(٢).

ويبدو أن هرقل قد استعاد رشده بعد كتابة هذه الرسالة، وصحا من غفوته، فجمع وزراءه وقواده وقال لهم: إنى إنما أذعنت لكسرى لأطمئنه وأطمئن أصحابه ،أما أنا فخارج إلى أرض فارس. وكان ذلك فى عام (٦٢٢م) بعد أن قضى الفرس نحواً من عشر سنين لايجدون من يصدهم بأرض الروم.

---

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ص١.

(٢) المصدر السابق والجزء والصحيفة ، وقد أشارت مصادر كثيرة إلى انعزال هرقل وانغماسه فى اللهو والعبث فى تلك الأثناء ، بسبب استيلاء الفرس على مملكته ، وقد آثرنا نقل نص هذه المراسلات بين هرقل وكسرى من كتاب البطريرك أفتيشيوس المكنى بسعيد بن بطريق لكونه لم يتورع عن ذكرها ، ولم يحاول المرور بسرعة على الأحداث كما صنع غيره . ويؤكد بتلر أن كسرى رفض رسالة هرقل وقال: "إن الدولة لى وقد عصبتها ، ثم هو يرسل الآن إلينا أموالنا هدية ولكنا لن نصبر حتى نأتى به إلى قبضة يدنا وقَتل الرسل ، ولم يُرسل إلى هرقل جواباً. (ينظر: فتح العرب لمصر ج١ ص١٠٤).

وكانت المشكلة التى واجهت هرقل هى نقص الأموال ، كما رأقه على وجه الخصوص ضياع مصر وانقطاع ما كان يتحصل من أموالها الكثيرة وغلالها الوفيرة ، ولكنه عمد إلى أموال الكنائس فاقترض منها على أن يعيدها مع رباها ، وحشد جنده وركب إلى كيليكيا فى آسيا الصغرى(١) فى أول حرب صليبية(٢) لتخليص الدولة من أعداء الصليب(٣).

وقد استمرت حملة هرقل قرابة سبع سنوات (٤) ، أذاق فيها الفرس أضعاف ماصنعوا ببلاده من إحراق ودمار وقتل وتمثيل واستيلاء على الكنوز والنفائس، وأعيدت الأشياء المنهوبة ، وأطلق سراح الأسرى الروم والمسيحون.

---

(١) جورجى زيدان: نفس المرجع ج١ ص٤٤.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ج١ ص١٠٥.

(٣) أحدثت الروح التى جمع بها هرقل قواته (١٢٠,٠٠٠ مقاتل) التساؤل عند الكثيرين ؛ إذ كان الروم قد أحبطوا وخارت عزائمهم وزلزلت بهم الأرض حتى إن كثيراً من الشعراء وصف هذه الحالة ، وقال أحدهم:

خشى الروم من الفرس وقد	هربوا فى الحرب من وقع الأسل
وغدوا والجبن من عاداتهم	منذ حل الخوف فيهم والفشل
من سوى قولك أحيا موتهم	فكساهم ثوب عزم وأمل؟
من سوى عزمك قد بدلهم	باعثاً فى كل قلب ما اتخذل؟
ماسوى حزمك قد أنشرهم	بعد أن كانوا كأحجار الجبل
يثقلون الأرض من كثرتهم	ثم لايفنون فى أمر جلل

(بتلر: فتح العرب لمصر ج١ص١١٠).

(٤) ول . ديوارنت: قصة الحضارة ج١٤ ص١٥٢ ، حيث كانت نهاية هذه الحملة فى عام٦٢٨م.

وبهذا نكون قد رأينا حربين جائرتين متعاقبتين لم يقصد من ورائهما تمكين لدين ولا دفاع عن عقيدة ، ولا نشر لفضيلة ، وإنما هو باعث التسلط والهيمنة لاغير! ذاقت فى سبيلهما شعوب الدولتين الفقر والجوع والموت ، ولم تجن غير هذا من وراء طموحات الأكاسرة والأباطرة.

وبهذا تأكدت الحاجة إلى من يخرج هذه الشعوب قاطبة من أسر النفوذ والسلطان ، ويهديهم إلى طريق سوىً مستقيم ، يشعرون فيه بإنسانيتهم المفقودة ، وعقولهم المنهوبة وكرامتهم المضيعة ، بعد أن غيبوا قروناً فى دياجير الظلام والجهل والزندقة ، فكانت منَّةُ الله على البشرية ورحمته بهم أن أرسل إليهم سيد البشر وخاتم الرسل برسالة التوحيد الخالدة لكل العالمين ، حيث لم يعد يجدى قصر النبوة على قوم دون آخرين ، فى دنيا سادت الظلمة والحماقة كل أرجائها.

الفصل الثانى

* عالمـية الإســـلام *

عالمية الإسلام(١):

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل ، ونشأ بين قومه

---

(١) أورد الأستاذ: محمد فتح الله الزيادى إشارة بديعة عند تناوله لعالمية الإسلام ؛ حيث قال: وقبل الكلام عن عالمية الدعوة الإسلامية تجدر الإشارة إلى لقب "العالمية" و"الإنسانية" أصبح شعاراً يطلق على كل دعوة جديدة ، بهدف تحسينها لدى الشعوب -خاصة النامية منها- حتى تكون دافعاً لاعتناقها والسير في ركابها، وهى فكرة يتبناها الاستعمار الغربى ، خدمة لمآربه وتحقيقاً لأغراضه ، فهى فكرة حق أريد بها باطل ، ولكن إطلاق صفة العالمية على الدعوة الإسلامية ليس محض خيال ، أو ادعاء يقصد به خدمة أغراض أخرى ... إن العقيدة التى يمكن أن نطلق عليها صفة العالمية هى: "العقيدة العامة الشاملة الفطرية الواضحة التى تسعى لسعادة الإنسان كفرد والإنسانية كمجموع" (انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ص٢٠).

وإيضاحاً لهذا المعنى وإضافة إليه ، فإننا بنظرة سريعة إلى بعض هذه المسميات المدعاة مثل (هيئة الأمم المتحدة) و(دعوى حقوق الإنسان) و(الديمقراطية) مثلاً ، وما شابه ذلك من مسميات تطرح بهدف العالمية ، فإنا نجدها جميعها لاتسعى إلى ما يهدف من ورائها، بقدر مايسعى واضعوها إلى تحقيق السيطرة على من حولهم من الأمم واستمالتهم بهذه المسميات البراقة التى هى فى حقيقتها خلو من كل قصد شريف أو غرض إنسانى عام ونبيل. ولو أنهم وضعوا كل مشاكل العالم بأسره فى أيدى جماعة يسيرة من المسلمين فيما يشبه جماعة أهل الحل والعقد لانحلت كل عقد العالم ، وتوارت جميع مشكلاته ؛ لأن الحكم والتدبير هنا سيخرج من منطلق قوانين الإسلام التى جاءت لخير البشرية جمعاء بدون استثناء أو تمييز.

وأقرانه مغايراً لما هم عليه ؛ متدبراً فى نفسه أسرار الكون ، فكانت حياته مثاراً للفت الأنظار ؛ لتمتعه بمالم يدرج عليه أمثاله ، حتى لُقِبَ فى مجتمع الكفر "بالصادق الأمين" ، ثم أكرم الله البشرية بإنزال الرسالة عليه ، وفى أولها "إقرأ" دعوة للعلم والمعرفة ، إذ العالم آنذاك قد تبرأ من إنسانيته ، وتنحى عن عقلانيته.

ويهمس الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة الوضاءة بين أهله وأصحابه ليكسبهم أتباعاً له ، ويكسبون النجاة من الشرك ، وظل يدعو سراً بين عشيرته ، ويزداد المؤمنون بدعوته يوماً بعد آخر ، ثم أراد الله نشر شريعته فأمره بالجهر بها: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"(١) ، "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين *واخْفِضْ جَنَاحكَ لِمَن اتَّبَعكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينِ"(٢) ، "وَقُلْ إِنِّى أَناَ النَّذِيرُ الْمُبين"(٣) ، فلم تكن دعوته ابتغاء ملك أوجاه أو سلطان مما كان يدور بخلد القوم آنئذ ، وإنما كانت دعوة للحق والخير والطريق القويم.

ومع ذلك عارضه أكثر مجتمع الكفر ، وأذوه وطاردوه ، ولم يدعوا طريقاً لِمُنَاوَأَتِه إلا وسلكوه ، ثم اضطروه آخر الأمر إلى أن يترك موطنه هُو وَمَنْ آمن معه إلى بلدَ جديد هى يثرب التى كان دخوله إليها أول الفتوح فى الإسلامَ، كما سيأتى بعد.

ولو أعمل هؤلاء عقولهم قليلاً لوجدوا أن أقرب الناس لمحمد صلى الله عليه وسلم قد آمن بدعوته ، ولو لم يَلْمح هؤلاء صِدْق الداعى واكتساب النجاة لأنفسهم ما آمنوا به ، ثم إذا افترض هؤلاء الكفار والمعاندين أنه يُسفه

---

(١) الآية: ٩٤ من سورة الحجر.

(٢) الآيتان: ٢١٤ ، ٢١٥ من سورة الشعراء.

(٣) الآية: ٨٩ من سورة الحجر.

أحلامهم ويسُب آلهتهم ويكفرهم بتركها ، أكان يجدر بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يُضَيع أهله بهذه الدعوة ؟ أم كان يطوف بها بعيداً عنهم حتى لايمسسهم أذاها ؟ حقا إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

ثم يظهر من بعد ذلك فريق ينكرون عالمية الإسلام ، ويبنون وجهتهم هذه على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف غير جزيرة العرب التى هى عالمه الذى لم يفكر فى سواه ، وأن هذا الدين الذى نزل عليه لم يُهيأ إلا لتلك البلاد ، وتمادوا فى سوء قصدهم وقلة فهمهم فقالوا: إن محمداً منذ أن بُعث إلى أن مات لم يوجه دعوته إلا للعرب دون غيرهم ! هذا مايراه كثير من المستشرقين الذين قدموا الحقد والضلالة على الحق والدرس القويم.

وقد رد على هذا الإدعاء الكثير من المؤرخين المسلمين وعالجوه أنجع علاج ، ولكنى -ههنا- أُذكِّر بحقيقتين بارزتين:

أولاهما: أن هؤلاء المدعون لم يفهموا حقيقة الدين الإسلامى وجوهره ، أو قصدوا إلى التعمية فيما يدعون ، وبسبب هذا لم يُدركوا أن هذا الدين ليس دين محمد صلى الله عليه وسلم بذاته وخاصته ، وإنما هو دين سماوى عام ودائم، وما محمد صلى الله عليه وسلم بالنسبة له إلا النبى المبلغ والرسول المُتأسى به ، فلا يضاف هذا الدين إلى نبى بحسب جنسه أو بيئته ، وإنما لابد أن نلتمس فيه أبعاده ومقوماته.

وثانيتهما: أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يُقصر جهده فى التبليغ على جنسه العربى أو بيئته كما يدعون ؛ ألم يُرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتبه ورسله إلى نجاشى الحبشة ، ومقوقس مصر ، وكسرى فارس ، وقيصر بيزنطة ؟ فإذا كانت إجابتهم على هذا التساؤل بالإيجاب الذى لاجواب غيره ،

أفلا يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد قصد إلى تعميم الرسالة لسائر الناس فى عالمه آنذاك ؟ ثم ، أفلا يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد انطلق من مجتمعه العربى الذى نشأ فيه إلى مجتمع عالمى واسع ، يبتغى له الهداية والاستقامة؟.

كما لايسعنى فى هذا المقام إلا أن أُطلع هؤلاء الطاعنين الكائدين على ماقاله رفيق لهم فى الدين والعصر ، هو السير وليم موير الذى كتب بالنص قوله: "ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل إن للعالم أجمع نصيب فيها ، ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لايكون هناك غير دين واحد ، يُدعى إليه الناس كافة ، ولكى تكون هذه الدعوة عامة ، وتحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى جميع الشعوب ، نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى قيل إن محمداً بعث بها إلى عظماء ملوك ذلك العصر".

من هنا ندرك أن من المستشرقين من تناول القضية بدراسة علمية جادة ومحايدة فَهُدِى إلى الحقيقة وأَذْعن لها ، ومنهم من تناولها بعصبية دينية مغفلاً الحق وإعمال العقل ، كَيْما يُدس على تاريخ الدعوة ويقلل من شأنها ، ولكن هيهات هيهات ، فالحق صُراح وبّين.

وهكذا تتضح الحقيقة الجلية التى لايشوبها غموض أو التباس ، وهى أن الإسلام رسالة عالمية لكل بنى البشر الذين صارت أحوالهم إلى ما رأينا ، والذين مُزقوا كل ممزق ، بل يتضح كذلك أنها خاتمة الرسالات ؛ فما دامت ليست محصورة فى قوم بعينهم كالرسالات التى سبقتها ، ولا مخصوصة بزمان بعينه ، فهى عامة وخاتمة.

وقبل أن يؤكد القرآن الكريم على هذه العالمية أكدتها الكتب السماوية السابقة ، وعرفها المتدينون من قبل الإسلام وغير المتدينيين ممن قرأوا ماأُنزل عليهم من الكتب وما أُخبروا به عن طريق رسلهم السابقين.

وبيان ذلك أن دعوة كل نبى تقوم على أساسين اثنيين:

الأول: العقيدة. *الثانى: التشريع والأخلاق.*

فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما هى الإيمان بوحدانية الله وتنزيهه عن كل ما لايليق به من الصفات ، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار.

فكان كل نبى يدعو قومه إلى الإيمان بهذه الثوابت ، وكان كل منهم يأتى مُصَدِقاً لدعوة مَنْ قبله ، ومُبشراً ببعثة من سيأتى بعده ، وهكذا فقد تلاحقت بعثتهم إلى مختلف الأقوام والأمم ، ليؤكد الجميع حقيقة واحدة أمروا بتبليغها وحمل الناس على الإذعان لها ، ألا وهى الدينونة لله عزوجل وحده ، وهذا ما بينه الله تعالى فى كتابه الكريم بقوله: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيه ... إلخ الآية"(١).

بل إنه لايتصور أن تختلف دعوات الأنبياء الصادقين فى شأن العقيدة ؛ لأن أمور العقيدة من نوع الإخبار ، والإخبار عن شيىء لايمكن أن يختلف مابين مخبر وآخر إذا فرضنا الصدق فى خبر كل منهما ، فمن غير المعقول

---

(١) من الآية :١٣ من سورة الشورى.

أن يُبعث أحد الأنبياء ليبلغ الناس أن الله ثالث ثلاثة "سُبحانَهُ وَتَعَالىَ عَمّا يَقُولُونَ عُلُواً عظيماً" ، ثم يُبْعث من بعده نبى آخر ليبلغهم بأن الله واحد لاشريك له ، ويكون كل منهما صادقاً فيما بلغ عن الله تعالى(١).

هذا عن العقيدة ، أما التشريع ، وهو من الأحكام التى يُتَوخى منها تنظيم حياة المجتمع والفرد ، فقد كان يختلف فى الكيف والكم ما بين بعثة نبى وآخر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وسبب ذلك أن التشريع من نوع الإنشاء لا الإخبار ، فلا يرد فيه ما أوردناه على اختلاف العقيدة ، ثم من المفروض أن يكون للتطور الزمنى ولاختلاف الأمم والأقوام أثر فى تطور التشريع واختلافه، بسبب أن أصل فكرة التشريع قائم على أساس ما تقتضيه مصالح العباد فى دنياهم وآخرتهم.(٢)

هذا إلى أن بعثة كل من الأنبياء السابقين كانت خاصة بأمة معينة ، ولم تكن عامة للناس كلهم ، فكانت الأحكام التشريعية محصورة فى إطار ضيق حسبما تقتضيه حال تلك الأمة بخصوصها ، ويتضح مما سبق أنه لاتوجد أديان سماوية متعددة ، وإنما توجد شرائع سماوية متعددة نَسَخَ اللاحق منها السابق، إلى أن استقرت الشريعة السماوية الأخيرة التى قضت حكمة الله أن يكون مُبَلِغها هو خاتم الأنبياء والرسل أجمعين(٣).

وإذا كانت تلك هى الحقيقة البينة ، فإن الناس قد خالفوا أنبياءهم وما جاءوهم به ، وَتَقَوّلوا عليهم مالم يكن منهم ، وتخربوا واختلفوا وتفرقوا ليتخذوا من أفكارهم وأهوائهم المادية والعنصرية الدنيوية أُطراً متفاوتة تَتَّسع

---

(١) البوطى: فقه السيرة ص٣٧.

(٢) المرجع السابق ص٣٧.

(٣) نفس المرجع ص٣٨.

لمن أحبوا وتضيق على من لايريدون ، متنافسين فـى جعل هـذه الأُطـر قوانين وتشريعات هى من عندياتهم لكنهم ألصقوها زوراً وبهتاناً بمـا نـزل عليهـم مـن الشرائع.

وترتب على هذا أن لم يكن الإنكار لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم أتياً من جانب المشركين الذين لايدينون بشريعة ولا يقرأون كتاباً وحسب ، بل جـاء الإنكـار الشـنيع مـن أهل الكتـب والشـرائع أنفسـهم ، مدفوعيـن إلـى ذلـك بعـدة اتجاهات :

الأول: حرصهم على أن يُحافظوا على ما قَنَّنُوه لأنفسهم من مناهج وتشـريعات تُرضى أنفسهم وتحقق لهم أهواءهم مهما تفلتوا فيها.

الثانى: هو الحقد الأعمى ، حيث لم يكن النبى الخاتم منهـم ، إذا كـانوا يحبـون ذلك ويرجونه حتى يتطاولوا به على الأمم المغايرة لهم من حولهم.

الأمر الثالث: كـان استكبارهم علـى أن يتبعـوا هـذا النبـى الـذى هـو مـن أمـة غيرهم ، فيتنازلوا عن شـرف الرياسـة والزعامـة ، وينخرطـوا فـى أمـة أخـرى يرونها أقل من أن تُطاولهم فى شرف الأمانة الدينية والزعامة الدنيوية.

وقد سبقت مشيئة الله عزوجل بأن يجعل دين محمد صلى الله عليه وسلم دين العالمين ، فأخذ العهد والميثاق على الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد صلـى اللـه عليه وسلم إن جاءهم مصدقاً لمـا أنـزل عليهـم ، فكـان معنـى ذلـك تنبيـه الأمـم والشـعوب التـى ستدرك زمـن محمـد صلـى اللـه عليـه وسـلم إلـى الإيمـان بـه والتصديق بدعوته ، لأنها دعوة الحق الذى لايأتيه الباطل ، والدعوة العالميـة العامة التى كتب الله لها الخلود إلـى أن تنفطـر السـماء وتنكـدر النجـوم وتُبدَّلُ الأرض غير الأرض والسماوات ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا

مَعَكُمْ لتؤمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّه قَال أَأَقْرَرتُمْ وَأَخَذْتُم عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِين"(١).

كما أخبر الله عزوجل الأنبياء فيما نُزل عليهم من الكتب بكرامة هذا النبى الكريم ، وذكر لهم من أوصافه وعلاماته ما يجلو غواشى الشك ، ويضيىء طريق الحق ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: "الذِّينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّى الذى يَجِدُونَهُ مكتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التوراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوف وَيِنْهَاهُم عَنِ المُنْكَر وَيَحِلُّ لَهُم الطيبات وَيُحَرِمُ عَلَيْهِمُ الخبائثَ وَيَضَعُ عَنْهُم إِصْرهُم وَالأَغْلاَلَ التِّى كَانَتْ عَلَيْهِم فَالذِّينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتبَعُوا النُّورَ الذِّى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُون"(٢).

وهكذا يتضح أن الله عزوجل قد مهد لدعوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم منذ أمدٍ بعيد ، وأظهر ذلك لأنبيائه الذين سبقوه ، وَفصَّله فى كتبه التى أنزلها إليهم ، فأقرأوها أُممهم وتركوها بين أيديهم تحمل صفات هذا النبى الخاتم ، وتتضمن ملامح رسالته وأهميتها لأقوام زمانها ، ومع هذا فقد عميت قلوبهم بما ران عليها من أكدار الحقد والحسد ، وتغافلوا عن كل هذا وجعلوه خلف ظهورهم ، يريدون ليطفئوا نور الله والله مُتِم نُوره ولو كَره الكافرون.

وكان حرياً بهم أن يكونوا عَوناً لصاحب الرسالة الخاتمة ومُصدقين له ، يتوغلون فى أمم الشرك يُنْبئونهم بما علموه فى كتبهم ، وأن هذا النبى هو الذى سيجمع شعثهم ويوحد كلمتهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لكن أين هى تلك العقول التى تهتدى لنور الحق فلا ترى سواه؟!.

---

(١) الآية: ٨١ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: ١٥٧ من سورة الأعراف.

وبهذا يتأكد أن الإسلام دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس ديناً جديداً ، وإنما هو كَكُل الشرائع السماوية التى سبقته ، يتفق معها فى المصدر الذى أتت منه وهو كونها من عند الله تعالى ، وأنها كلها ترمى إلى سعادة البشرية وتخليصها من شوائب الوثنية وأدران الجهالة ، ويتبع هذا أن الإسلام ليس بالدين الجديد ، وإنما هو استمرار وتجديد للوحى الذى أنزل على نوح عليه السلام ، ثم على سائر الأنبياء من بعده ، وإذا كانت الشعوب - الآن - تجد أمامها عقائدها شتى مختلفة فإنما مرجع ذلك إلى تحريف أتباع الأنبياء من الأمم لهذه الأديان بعد وفاة هؤلاء الأنبياء(١).

وإذا كان الإسلام يتفق مع بقية الديانات التى سبقته فى وحدة الدين ومصدره الإلهى ، فإنه يزيد عنها فى كونه الدين النهائى الخاتم لجميع الشرائع، كما أن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم هو الخاتم لسائر النبيين ، فإذا كان ذلك كذلك فإن الدين الإسلامى يعتبر هو الغاية القصوى لكل ما سبقه من أديان، وقديماً قال علماء الأخلاق: إن الغاية تَتَصورٌ من المبدأ وتكون هى الباعث على السير إليها ، ولذلك أراد الله أن يؤمن جميع الأنبياء بخاتمهم ، وأن يُكلفوا أَتْباعهم بالإيمان به حثاً لسير الجماعة البشرية إلى الكمال المنشود.

ولم يكن الإسلام خاتماً للشرائع السابقة فحسب ؛ بل إنه انفرد أيضاً بخاصية أخرى لم يتميز بها أى دين سابق له ، وهذه الخاصية تتمثل فى كونه ديناً عاماً أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليقوم بتبليغه إلى الناس كافة عرباً وعجماً ، بيضاً وسوداً ، إنساً وجناً ، وتبعاً لهذه المهمة فإن الإسلام اختلف عن غيره من الديانات الأخرى بأنه دين صالح لكل زمان

---

(١) محمد فتح الله الزيادى: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ص١٩.

ومكان ، وأنه مُساير لكل العصور مهما اختلفت نواحى الحياة فيها(١).

(١) محمد فتح الله الزيادى: نفس المرجع ص٢٠.

أهل الكتاب ومحمد صلى الله عليه وسلم

(أ) اليهـــود:

لمزيد من البيان لما سبق نجد أن الله عزوجل قد أنزل على موسى عليه السلام فى التوراة قوله: "وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، ويُكلمهم بكُل شيىء آمُرُهُ به ، ومن لم يُطع كَلاَمه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى انتقم منه ، فاما النبى الذى يجترىء على بالكبرياء ويتكلم باسمى بمالم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين النبى الصادق والكاذب فهذه علامتك ، إن ما قاله ذلك النبى باسْم الربّ ولم يحدث فهو كاذب ، يريد تعظيم نفسه ولذلك لاتخشاه"(١).

عن هذه البشارة يقول اليهود إنها كانت ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام ، مع أنهم كانوا ينتظرون فى مدة المسيح نبيا آخر غير المسيح، فإنهم أرسلوا بيوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه ، فقالوا له: أنت إيليا؟ قال: لا ، فقالوا: أأنت المسيح؟ قال: لا ، فقالوا أأنت النبى؟ قال: لا ، فقالوا: مابالك إذا تعمد ، إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبى ؟ فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبى لم يأت حتى زمن المسيح(٢).

ثم إن التوراة تقول فى صفة النبى (أى محمداً صلى الله عليه وسلم) إنه مثل موسى ، وأنه لايكذب ولا يفترى على الله الكذب ، وهذا يشبه فى القرآن الكريم قوله تعالى: "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْه

---

(١) الإصحاح الثامن من سفر التثنية.

(٢) الشيخ: محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص١٦ ، ١٧.

بِالْيَمِـــينِ * ثُـمَّ لَقَطَعْنَـا مِنْـهُ الْوَتِينَ"(١). وحسبنا أن نذكر - فى هـذا المقـام - ما روى عن ثعلبة بن هلال من أحبار اليهود حينمـا سـأله عمـر بـن الخطاب رضى الله عنه قائلاً : أخبرنى بصفات النبى صلى الله عليه وسلم فـى التوراة، فقال ثعلبة: إن صفته فى توراة بنى هارون حتى لم تتغير ولـم تتبدل هى: "أحمد من ولد إسماعيل بن ابراهيم ، وهو آخر الأنبياء ، وهو النبى العربى الذى يأتى بدين ابراهيم الحنيف ، معه صلاة لوكـانت فـى قوم نـوح مـا أهْلكوا بالطوفان ، ولو كانت فى عاد ما أهْلكوا بالرياح ، ولو كانت فى ثمود ما أهلكوا بالصيحة ، يُولد بمكة ، وهو أمـى لايكتب ولا يقرأ المكتوب ، وهـو الحَمَّاد يَحْمَد الله فى الشدة والرخاء ، صاحبه من الملائكة جبريل ، يلقى من قومه أذى شـديداً ، ثم يدال عليهم (أى تكون لـه الدولـة) فيحصدهم حصيداً، تكون الواقعات بيثرب ، منها عليه ، ومنه عليها ، ثم له العاقبة ، مع قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلـى أسفله ، صُدُورهم أنـاجيلهم ، وقُرْبانهم دِمَائُهم ، لُيُوث النهار ، رُهْبان الليل ، يرعب العدو مسيرة شهر ، يباشر القتـال بنفسـه ، ثم يخـرج ويحكـم ، لاحـرس ولا حجـاب معـه ، اللـه يحرسـه..."(٢).

هذه الرواية توضح بما لايدع مجالاً للشك صفة النبى الخاتم وزمانـه ومن أى جنس هو ، وموقـف قومـه منـه ، وصفـات أصحابـه ومتبعيـه ، وأرض نصـرته ، وأسس شريعته ، وما فيها من الهداية والإرشاد اللذين يقـودان إلى

---

(١) الآيات: ٤٤-٤٦ من سورة الحاقة.

(٢) الـــــدكتور: محمد الطيب النجار فى تقديمة لكتاب محمد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام للمستشار محمد عزت الطهطاوى.

النجاة ، والحفظ من البوار والخسـران ، وفـوق كـل ذلـك يعصمـه ربـه ويحميه ويحرسه.

وقريب من هذه الرواية -كذلك- ماروواه القاضى عياض فى الشفاء من أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بـن العـاص رضـى اللـه عنهـم أجمعين عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن "يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً"(١) ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفـــع السيئـــة بالسيئـــة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لاإلـه إلا الله ، ويفتح به أعيناً عُمياً وآذانا صُماً وقلوباً غُلفاً(٢).

ورُوى مثل ذلك أيضاً عن عبد الله بن سلام رضـى اللـه عنـه وهـو الـذى كان رئيس اليهود ، فلم تُعمه الرياسة عن اتباع الدين الحـق والسنـة القويمـة ، وكذلك كعب الأحبار ، وجاء فـى بعض طـرق الحديث السابق: ولا صخـب فـى الأسواق ، ولاقوال للخنا ، أُسددُهُ لكـل جميـل ، وأهـب لـه خلـق كريـم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شـعاره والتقـوى ضمـيره ، والحكمـة مقولـه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحـق شـريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم

---

(١) الآية: ٤٥ من سورة الأحزاب.

(٢) الشـيخ/ محمـــد الخضرى: نفس المرجع ص١٨ محمد عزت الطهطاوى (المستشار): محمـــد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ص١١٥ ، القاهرة (طبعة ثانية) ١٩٨٦م.

به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسمى به بعد النكرة ، وأكثر بـه بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع بـه بعد الفرقـة ، وأؤلـف بـه بين قلـوب مختلفة ، وأهـواء متشتته ، وأمم متفرقـه ، وأجعل أمتـه خـير أمـة أخرجـت للناس، وقد أخبر عليه السلام عن صفته فى التوراة فقال: وهو الصادق الأمين عبدى أحمد المختار ، مولده مكة ، ومهاجره بالمدينة- أو قـال: طيبـة- وأمتـه الحامدون لله على كل حال(١).

من كل هذا نـدرك أن اليهـود قد علمـوا يقينـاً ببعثـة نبـى آخـر الزمـان ، وأحيطوا بكل صفاتـه وظـروف عصره ، ورأوا فـى اتباعـه قهـراً وغلبـة تكـون منهم للمشركين الذين كـــان اليهود يتطـاولون عليهـم بـأنهم أهل كتـاب ، وأنهم (أى اليهـود) باتبـاعهم هـذا النبـى تَدين لهـم الأمـم ، فيتحكمـون فـى مقدراتها، وبخاصة من الناحية السياسة والمادية ؛ حيث كان دينهم -ومايزال- حب الثروات وامتلاكها ، وتسخير الأمـم المخالفـة لهـم بمـا يمتلكـون ولا يملكـه غيرهم .

وتـأكد هـذا بوضـوح حينمـا كـان اليهـود يسـتفتحون علـى عـرب يـثرب المشكرين بهذا النبى المنتظر ، ومن ذلك ماحدَّث به عاصم بن عمرو بـن قتـادة عن رجال من قومه ، قالوا: إنما دعانا للإسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنـا نسمع من أحبار يهود ؛ فقد كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكـانوا أهـل كتـاب عندهم من العلم ماليس لنـا ، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نقلتكـم

---

(١) الخضـــــرى: نفس المرجع ص١٨ ، وعلى كل حال فكل هذه الإشارات بصـفة النبى محمـد صلى الله عليه وسلم وزمانه وأرضه قد وردت فى القرآن الكريم وفى سنتـه صـلى اللـه عليه وسلم وأيدها واقع الحال وما تمتع به الصفات وما كان لصحابته الفضلاء من واقع يؤيد ماذكر.

معه قتل عاد وإرم ، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ماكانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا ، "وإنما قال لهم اليهود نقلتكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه السلام فى كتبهم أن هذا النبى يستأصل المشركين بالقوة ، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغى سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيِّم فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة"(١).

وصدق الله العظيم إذ سجل عليهم كل هذا فى قوله: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَاعَرَفُوا كَفَرُوا به فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ"(٢).

---

(١) المرجع السابق ص١٩.

(٢) الآية: ٨٩ من سورة البقرة.

(ب) النصارى:

جاء وصف محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته فى الإنجيل وَأَخْبَر بها عيسى عليه السلام وَبشَّر بِهِ قَوْمَه ، حيث أبان الله عزوجل ذلك فى القرآن الكريم بقوله: "وَإِذْ قَالَ عِيَسى بنُ مَريَم يَابنَى إِسرَائِيلَ إِنى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوراة وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَد..."(١) وكان اسمه فى الإنجيل الفارقليط ، ووصفه عيسى عليه السلام بأوصاف لاتنطبق إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان مما قاله عيسى عليه السلام: إنه يوبخ العالم على خطيئته ، وإنه يُعلمهم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا ما صدقه القرآن فى قول ربنا عزوجل: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى"(٢) ، وقال تعالى مخبراً عن أمة محمداً صلى الله عليه وسلم: "وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّار...الخ الآية"(٣).

وكذلك جاء فى إنجيل متى بالإصحاح الحادى عشر ، عدد "١٤" مانصه: "إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتى" ، ومعناه: إن أردتم أن تَتَّبِعُوا فاتبعوا إيلياء ، وكلمة "إيلياء" توافق فى مجموع حروفها على حساب قاعدة "أبجد" كلمة "أحمد" فكان فى ذلك إشارة واضحة إلى الأمر باتباع نبى

---

(١) من الآية: ٦ من سورة الصف.

(٢) الآيتان: ٣، ٤ من سورة النجم.

(٣) من الآية: ٢٩ من سورة الفتح.

سيأتى اسمه أحمد(١). كما جاء فى إنجيل برنابا فى الفصل التاسع والثلاثين: "إن آدم لما انتصب على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس نَصُّهَا: "لاإله إلا الله. محمد رَسُول الله" فسأل عن معنى" محمد رسول الله" فقال الله له: إنه ابنك الذى سيأتى بعد آلاف السنين ، والذى متى جاء سَيُعطى العلم الهدى والنور" ، (ذلكم غيض من فيض ، وقليل من كثير مما حفلت به التوراة، واشتملت عليه الأناجيل المختلفة، وصدق الله العظيم إذ يقول فى تلك الأوصاف والبشارات: "يَجِدُونَه مكتُوباً عِندَهُم فِى التَّوْراةِ وَالإِنجِيل"، وهى فى معظمها - إذا استثنينا ما جاء فى إنجيل برنابا - رموز وإشارات خفيت على أذهانهم الكليلة، وعشيت عنها بصائرهم العليلة، ولولا ذلك ما سمحوا ببقائها فى كتبهم، وهم الأعداء الألداء للإسلام ونبى الإسلام" (٢).

ولله در الإمام البوصيرى "رضى الله عنه" ، إذ يقول فى منظومته:

بينته توارتكم والأناجيل وَهُم فى جحوده شُركاء

إن يقولوا ما بينته فما زالت بها عن قلوبهم عشواء

من هو الفارقليط والمنحماء؟ وبالحق تشهد الخصماء

أخبرتكم جبال فاران عنه مثل ما أخبرتكموا سيناء

وأتاكم من المهيمن قديس وكم أخبرت به الأنبياء

وصفت أرض نبوة شعيا فاسمعوا ما يقوله شعياء

أرض بدو عطشاً حكت أرض لبنان لقد ناسب الرواة الرواء

---

(١) الدكتور/ محمد الطيب النجار فى تقديمه لكتاب: محمد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام.

(٢) نفس المرجع.

عرفوه وأنكروه وظلماً كتمته الشهـــــادة الشهـــــداء
أو نـــور الإله تطفئـه الأفـواه وهو الذى به يستضـــاء(١)

والآن. إذا كـان اليهود والنصـارى قد وجدوا فـى كتبهم المنزلـة عليهـم ماسبق بيانه ، فإنه يصير جلياً أن هذه الرسالة الخاتمة متممة لكل ما سبقها، وما دامت خاتمة فإنها ليست محصورة بزمان ولا مكان ، كمـا كـان يحدث مـن قبل ، إذ كانت الرسالة تنتهـى بانتهـاء مهمـة النبـى الـذى جـاء بهـا ، كمـا كـان يحدث أن يجتمع رسولان أو أكثر فى زمن واحد ، مثلما حدث بالنسبة لإبراهيم ولوط عليهما السلام ، وبالنسبة لشعيب وموسى وهارون(٢) ، عليهم السلام.

وعليه ، فلم يكن الرسول صلـى اللـه عليـه وسـلم رجـلاً إقليميـا أوزعيمـاً وطنياً ، إذ كان مجال العمل فى بلاد العرب فسيحاً ، فلو سار محمـد صلـى اللـه عليه وسلم فى قومه سيرة القادة السياسيين والزعمـاء الوطنيين لكـان لـه أن يعقد للأمـة العربيـة لـواءً تنضم إليه قريش والقبـائل العربيـة ، وَيُكَـوِّن إمـارة عربية قوية مُوَحدة يكون رئيسها. ولا شـك أن أبـا جهـل بـن هشـام وعتبـة بـن ربيعة وأضرابهما كانوا فى مقدمة من ينضم إلى هذا اللـواء القومـى ، ويقـاتلون تحته ويقلدونه الزعامة ، أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته ؟ ألـم يُحكِّمـوُه فـى أكبر حادث من حوادث حياتهم المكيـة ويمنحـوه أكـبر شـرف حين حكَّمـوه فـى وضع الحجر الأسود فى مكانه من البيت ؟! أما قالوا له على لسـان عتبـــــة بهـــــم مـاعرفوا الإغـراء السياسـى: "إن كنـت إنمـا بـك حـب الرياسـة

---

(١) محمـد عزت الطهطاوى: محمد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٣٩.

(٢) السيـــد محمـــد يونس (الدكتور): الفتوحات وأثرها فى نشر الإسلام ص٢٩٠ ، دار والى الإسلامية بالمنصورة (طبعة أولى) ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م.

عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً مابقيت"؟ ، "وإذ صار له ذلك كان يمكنه أن يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة ، من العجم الظالمين، ويغرز علم الفتح العربى والمجد القومى على هضاب الروم والفرس، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الإمبراطوريتين فى ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة وجارة أخرى ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة"(١).

ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك ، وكان رسولاً لكل العالمين ، فقد نزلت عليه آيات القرآن بمكة تؤكد ذلك له ، وتهدى الكافة إلى اتباعه ، ومنها: قول الله تعالى: "فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ"(٢) ، وقوله: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ"(٣) ، وقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ"(٤) ، وقوله: "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ *وَمَاتَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ"(٥).

---

(١) الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٧٢.

(٢) الآيات: ٢٦-٢٨ من سورة التكوير.

(٣) الآيتان: ٥١ ، ٥٢ من سورة القلم.

(٤) الآية: ٢٨ من سورة سبأ.

(٥) الآيتان: ١٠٣ ، ١٠٤من سورة يوسف ، وقد وعى السيرتوماس أرنولد هذه الإشارات القرآنية وعزز بها رأيه فى عالمية الإسلام(ينظر كتابه: الدعوة إلى الإسلام ص٤٨،٤٩

وهذه الآيات كلها مكية ، أى أن عالمية الرسالة تقررت منذ الوحى ، وفى الأيام التى كانت الدعوة فيها تعانى الأمرين ، ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه العالمية اكتفاءً بما تمهد فى صدر الدعوة إلا آية واحدة من سورة الأحزاب هى قوله جل شأنه: "مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِين"(١) وختم النبوة تقرير لهذه العالمية.."(٢).

كما أن أية ختم النبوة قد صدقتها الأيام المتعاقبة ؛ فها قد مضت أربعة عشر قرناً وما نزل من السماء وحى ، وقد حاول الاستعمار الأروبى أن يضع يده على مخبول فى الهند ، وآخر فى إيران ليصنع منهما أنبياء ، يُكابر بهما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهيهات هيهات ! فإن الأوربيين أنفسهم احتقروا الرجل الذى صنعوه ، فما تبع أحدهم بنى الهند ولانبى العجم ، وبدأت اللعبة تنكشف ويفر عنها المستغفلون !"(٣).

ثم يصبح من أبرز الدلائل على عالمية ا لإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار مايظهر من تطابقه مع الفطرة الإنسانية ، وقدرته على العطاء الوافر لكل العصور والأزمنة والبيئات والأجناس ، وطابعه الإنسانى القائم على الإخاء والمساواة ، وحجب التفرقة بين الأجناس والعناصر ، ويستمد الإسلام هذا المنهج المتكامل الإنسانى الطابع العالمى النزعة من

---

(١) آية: ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٢) الشيخ محمد الغزالى: عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق ، مقال منشور فى مجلة الوعى الإسلامى العدد ١٥٠ ص١٧ السنة ١٣٩٧هـ.

(٣) الشيخ محمد الغزالى: نفس المرجع والصحيفة.

التوحيد(١). فالتوحيد الخالص الذى يعد رواقه على كل القيم هو أسُّ الأساس فى مفهوم الإسلام ، ويبدأ التوحيد بتوحيد الله ، ثم يقيم وحدة الجنس البشرى ووحدة الفكر الإنسانى.

ويقرب من هذا المعنى ما جاء فى مجلة روسية(٢) تحت عنوان:"النبى محمد" ما يأتى:"إن محمداً نبى الإسلام الذى يدين به الآن أكثر من مائتى مليون مسلم(٣) قد قام بعمل عظيم جداً،فإنه هدى الوثنيين الذين قضوا حياتهم فى الحروب الأهلية وسفك الدماء،وتقديم الضحايا البشرية،إلى معرفة الإله الواحد،وأنار أبصارهم بنور الإيمان،وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله" والحق الذى لامراء فيه أن النبى محمد قام بعمل عظيم وانقلاب كبير فى العالم،ومن أراد أن يتحقق ماهو عليه الدين الإسلامى من التساهل فعليه أن يطالع القرآن الكريم بإمعان،وإذ ذاك يُصدر حكماً مبنياً على الحقائق الباهرة المتضمنة تلك التعليم،وقد جاءت فيه آيات كريمة تدل على روح الدين الإسلامى السامية، فمنها: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا..."(٤).

---

(١) أنور الجندى: عالمية الإسلام "التوحيد" مقال منشور فى مجلة منبر الإسلام ص١٢٢ ، رجب ١٣٩٢هـ – أغسطس ١٩٧٢م.

(٢) عبد الفتاح شحاته (الدكتور): محمد رسول الله فى مرآة الفكر الأجنبى ، ص١ القاهرة ١٣٨١هـ – ١٩٦٢م.

(٣) هذا حصر قديم جاء على لسان المستشرقين فى هذا المقال ، أما الآن فالمسلمون يزيدون على المليار.

(٤) من الآية: ١٠٣ من سورة آل عمران.

وقال برنارد شو المفكر الإنجليزي: "لقد كان دين محمد موضع تقديري السامي دائماً لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة،لأنه على ما يلوح لي هو الدينُ الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل الأجيال من الناس"(١). وأكد هذا المعنى أيضاً بارتملى سانتهلر حين قال: "إن الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة،فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وأن محمداً بتحريمه الصُور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه،وأن يبحث عن الله خالقه(٢).

وإذا كان من الحق فى الشهادة ما نطقت به الأعداء ، فإن هذه الأقوال للمفكرين الغربيين تصبح بياناً واضحاً على أهمية الإسلام للمجتمعات بأسرها، يتلمسون فيه حلولاً لمشكلاتهم التى أُعضلت وتخلفهم المذرى مما لم يجتمعوا على مثاله من قبل ، ويظهر من ثنايا أقوالهم أن هذا الدين الذى اختتم به محمد صلى الله عليه وسلم رسالات السماء كان المنقذ والمخلص لكل من الوثنيين والمتدينين من شُرور حياتهم التى استشرت فيهم من قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو لهذا دين للعالم بأسره لا لأمة بعينها.

ولم تكن عالمية الإسلام قاصرة على شمولة لعوالم مختلفة ؛ ولكنها– مع ذلك – تتضمن شموله لما يحتاجه البشر فى حياتهم الروحية والمادية (٣) ،

---

(١) الدكتور: عبد الفتاح: محمد رسول الله فى مرآة الفكر الأجنبى ص٣.

(٢) أنور الجندى: عالمية الإسلام "التوحيد" ص٥٤.

(٣) سالـــم محمد غانم (الدكتـــور): عالمية الإسلام ص١١٩ مقال منشور فى مجلة منبر الإسلام ، رمضان ١٣٩٤هـ/اكتوبر ١٩٧٤م.

فقد أرشدهم وحفزهم إلى نظام تتوازن فيه مطالب الروح والمادة ؛ حيث قال سبحانه وتعالى: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُون"(١) ، وقال: "وَابْتَغِ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحبُّ المُفْسدين"(٢).

ومن ثم فقد صار جل مشاكل المجتمعات الغربية التى لا تدين بالإسلام -الآن- بسبب أنها لم تنعم بروحانية هذا الدين الحنيف التى تُتيح للفرد توازناً وتوائماً مع مقتضيات حياته ، وعليه فقد أصبحت نفوس بعض هذه الشعوب تضيق ذرعاً بما تتسع له قلوب المسلمين ، فنجد مثلاً فى الآونة الأخيرة تعدد حوادث إلقاء الأمهات الأمريكيات للأجنة فى سلال المهملات ، وفى السويد حيث يبلغ مستوى دخل الفرد ذروته ، تقوم جماعات وجمعيات بتنظيم عمليات جماعية للانتحار والتخلص من الحياة ، وهذا وذاك مما يحظره الإسلام وينهى عنه ، فلم تعد هناك حاجة لإتيانه لأن المسلم يوقن أن ما يصيبه مقدور له ، فهو يؤمن به ويتلقاه برضا نفس وارتياح.

ثم إن مرض العصر العُضال الذى أسموه "الإيدز" لم ينتشر ويستشرى الطاعون إلا فى تلك المجتمعات غير المسلمة ، لما يشيع فيها من إباحية جنسية مما لم يكن مثله فى مجتمعات المسلمين. ولذلك فقد فهموا تلك الحقيقة، وحسدوا عليها الشعوب الإسلامية المصانة ، فأخذوا يُصدرون إليها عدوى هذا الطاعون القاتل عن طريق الشواذ والساقطات !.

---

(١) الآية: ١٠ من سورة الجمعة.

(٢) الآية: ٧٧ من سورة القصص.

وستظل الأيام تثبت لهم فى كل حين مدى ما يتمتع به المجتمع المسلم من صيانة وفاعلية ضد كل ما تفرزه أساليب حياتهم العشوائية العمياء التى لا يسترشدون فيها بهدى ولا تعصمهم خلالها ملة ، "إن الصباح العريض الذى بزغ مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم سوف يظل وحده النور الذى يغمر العالم ويملأ الأفق ، إلى أن يأذن الله بانتهاء الحياة والأحياء"(١).

وبإمكاننا فى غضون هذا القول أن نثبت لكل من يتطاولون على نبى الإسلام ورسالته الخالدة الخاتمة – وهم القارءون للتاريخ المتزيدين عليه ما أحبوا والتاركين له مارغبوا – يمكننا بسهولة أن نقرر فى مواجهتهم أن عالمية الإسلام والرسالة المحمدية قد تأكدت منذ خلق الله آدم أبو البشر عليه السلام ؛ حيث ورد أنه (أى آدم) حين نظر إلى عرش الرحمن وجد مكتوباً: "لا إله إلا الله. محمد رسول الله " ، فسأل ربه عمن يكون محمداً فأجيب ، فاستشفع به إلى ربه فتاب عليه وهدى.

ثم فى أيام سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، حيث كان ميلاد اسماعيل جد نبينا عليهما السلام قبل ميلاد أخيه إسحق جد اليهود والنصارى بزمن كبير(٢) ، وحيث أظهرت مناسك أديت بصورة عملية فى سعى هاجر أم إسماعيل بين جبلى الصفا والمروة بحثا عن الماء لوليدها ، وقرب إبراهيم الخليل ابنه وبكره إسماعيل لربه إجابة لرؤيا أراه إياها ، أليست هذه المناسك هى بعينها التى تؤدى اليوم ممن يحُج بيت الله الحرام؟ أنم يقع من الله

---

(١) الشيخ محمد الغزالى: عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق ص١٧.

(٢) ناقش هذه القضية تفصيلاً الإمام ابن كثير فى تفسيره لسورة الصافات (الجزء الرابع من تفسيره القرآن العظيم) وفى كتابه: قصص الأنبياء ص١٥٩-١٦٨.

عزوجل الربط والتأصيل بين حنيفية إبراهيم وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم؟ إذا قال سبحانه: "مَا كَانَ إبْرَاهِيم يَهُودِياً وَلاَ نَصرَانِياً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكين"(١) ، وعلى غرار هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم: "بُعثْتُ بالحنيفية السمحة" ، ثم يؤكد رب العزة هذا فى قوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "ثُم أوْحَيْنَا إلَيْك أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين"(٢).

أليست هذه كلها إشارات واضحة إلى الرسالة الخالدة والنبى الخاتم قد وضعت وقننت من قبل السماء منذ ميلاد آدم وبعثة إبراهيم عليهما السلام ؟ وهى فى مُجملها إشارات تؤكد على أهمية هذه الرسالة لنبى البشر ، تُظهر فى ثناياها تتابع الشرائع وتدرجها بين الأمم ، ثم تكون نهايتها على ما ابتُدئت به من حنيفية سمحة بُعث بها إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

ونحن على يقين من أن كل أهل الكتاب - السابقين واللاحقين - يعلمون ذلك ويكتمونه ، بدليل أن اليهود يحاولون اجتذاب الشرف والرفعة من العرب، ويجعلون إسحاق بن إبراهيم هو المقصود برؤيا الذبح ، وأنه هو الذى قَرَّبه أبوه إجابة لأمر الله ، وحجتهم داحضة وفريتهم فى ذلك باطلة ، لكن مقصودنا من ذلك أن نبين أنهم يعلمون التاريخ ويحفظونه ، وهاهم يحاولون تغييره بما يرضى أهواءهم ويقلل من قدر العرب الذين جاء منهم نبيناً محمد صلى الله عليه وسلم ، ونقول لهم: إذا قد عرفتم هذا وذكرتموه فأقِرُّوا بذاك ولا تُعارضُوه.

---

(١) الآية: ٦٧ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: ١٢٣ من سورة النحل.

وخلاصة القول أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها ، أو يتسللون إليها من نوافذها ، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية أو الخلقية فحسب ، منهم من يُوفقَّ لإزالة بعضها مؤقتاً فى نواحى البلاد ، ومنهم من يموت ولم ينجح فى مهمته ، لقد أتى النبى صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذى فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة ، وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه ، ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة ، وقام فى القوم ينادى: "يأأيها الناس ، قُولوا لا إله إلا الله تُفلحوا"(١).

لقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم دعوة عالمية كبرى تقصد الخير والهدى لجميع الناس ، لم يختص بها قومه ، ولم يطمح من ورائها إلى ملك أو جاه أو سيادة ، وقد عُرضت عليه كُلُّ تلك الأمور بدون عناء فرفضها وأثر المُضى فى سبيل الهدف الأسمى والغاية الرفيعة التى ادخره الله عزوجل لها ، فكان نموذجاً حياً وحقيقياً لنفس المعنى الذى اشتملته كلماته الخالدة: "إن مَثَلى ومثَلُ الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنه من زاوية ، فجعل الناسُ يطوفون به ويُعْجبون له ، ويقولون: "هلا وُضعت هذه اللبنة؟. قال: فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين"(٢).

---

(١) الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٧٣.

(٢) ابن حجر"أحمد بن على العسقلانى. ت ٨٥٢هـ": فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٦ ص٤٣٦ "طبعة ثانية" بيروت ١٩٨٥م.

وسوف تظل دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتبقى شريعته التى بُعث بها والقرآن الكريم الذى أنزل عليه من ربه، سوف يظل كل هذا الحق الحقيق فى دُنيا الناس" والنجاة لكل من اقترب من الهدى وباشرة، والمرفأ الأمين لكل من ضلت به نفسه، أو عميت بصيرته، أو نأت به شروره، إن طلب النجاة وحاول فى سبيل الهدى، وصدق الله العظيم إذ يقول: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"،(١) وهذا الحفظ فى ذاته آية إلهية تؤكد على أن القرآن دستور الشريعة الإسلامية وقانونها ، وهو دستور خالد وكتاب أبدى، والشريعة لا تنفصل عن دستورها ولا كتابها.

وبعد وعد الله بالحفظ لا يطلب دليل، ولكنا سوف نسُوق إلى مَنْ لم يفوزوا بعدُ بدخول ساحة الإسلام دليلاً عملياً وواقعياً، تذكرنا به هذة الآية الأخيرة. يأتى هذا الدليل من تساؤل بسيط نطرحه لكل أهل كتاب من قبل الإسلام، هو: أين كُتُبُكم التى أُنزلت إليكم وعكَفْتم عليها، وتركتم قبُولَ الإسلام بسببها؟ إن كانت الإجابة بأنها قائمة وموجودة ينبنى عليها سؤال أخر، هو: هل تجدون فيها شيئاً عن النبى الخاتم والرسالة الخالدة ؟ لإن وجدتم ذلك كما هو مقرر وثابت وجحد تموه فما أنتم إلا كما قال الله عزوجل فيكم: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُم لَيَكْتُمُون الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون"(٢) ، وقوله: "وَلَمَا جَاءَهُم رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِم كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون"(٣). وإن لم تجدوا فيها شيئاً من ذلك فانظروا

---

(١) الآية: ٩ من سورة الحجر. (٢) الآية: ١٤٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية:١٠١من سورة البقرة.

من حَرَّفَها وَبدَّلَها من بعد مَواضِعِها، وتبينوا لِمَ كان التحريف والتبديل ؟!.

وإن كانت الإجابة على السؤال الأول بأن هذه الكتب السابقة غير قائمة ولا موجودة، فهذا فى حد ذاته إشهاد وإقرار بحفظ الكتاب الخاتم والدستور الهادى الذى أشار إليه سيدنا موسى عليه السلام حين ناجى ربه ، فكان من بين مالاحظه من صفات أمة محمد صلى الله عليه وسلم قوله: " ...، رب إنى أجد فى الألواح أمة: أناجيلهم (قرآنهم) فى صُدورهم يقرءُونها وكان من قبلهم يقرأون كتبهم نظراً ولايحفظونها، فاجعلهم أمتى!..."

وهكذا فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى شَرَّفها الله باتباع الهدى ودين الحق وصحبة النبى صلى الله عليه وسلم ومنهجه ، لتكون خاتمة الأمم وأخُراهم ، ومن ثَمَّ فهُم مُطالبون بتبليغ الدعوة ونشرها بين الناس جميعاً، إما بالبلاغ ، أو بالقدوة العملية حيث يتميز سلوك المسلم عن كل سلوك غيره، فيكون لافتاً إلى ما وراء هذا السلوك العملى من دوافع وأسس قَيِّمة.

الفصل الثالث

* الإســــلام وأداب القــتال *

الحرب فى الإسلام وأسلوب جديد

لقد كان من الأُسُس الرئيسية فى دعوة الإسلام احترامه للنفس البشرية ودعوته للحفاظ عليها ، وتأكيده على صيانة حق الحياة لكل نفس بشرية ، ومن ثَمَّ فقد اهتمت كل القوانين المدنية التى يضعها البشر بهذا الحق الذى أكدته جميع الشرائع السماوية ، وبالتالى يُصبح كل دين أو قانون لايعترف بهذا الحق باطلاً ولايصح أن يمثل شريعة أو قانوناً إنسانياً ولا يمكن لأيهما أن يُظِل جماعة إنسانية بمظلة الحياة الإنسانية الآمنة المصونة ، أو يُهيىء لها سبيلاً إلى الرقى والبقاء.

وجاءت طريقة الإسلام الصحيحة لاحترام النفس البشرية نموذجاً كاملاً متقناً يصعب أن نرى مثله فى أى تقنين إنسانى ، مما أوجد توازناً وتوائماً بين جماعات البشر على ظهر البسيطة ، حتى إن القرآن الكريم يشير فى أكثر من موضع إلى التأكيد على هذا الجانب بطرق ناهية ودافعة عن إزهاق النفس بغير حق ، وجاء ذلك متزامناً مع بدايات الظهور الإنسانى على مسرح الكون؛ إذا وقع ما يخالف تلك القاعدة من ابنَىْ آدم عليه السلام حيث قتل قابيل أخاه هابيل، فجاء الردع والتقنين حين تناول القرآن الكريم تلك القضية ، فقال تعالى: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُم رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِى الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ"(١) ، ثم ترقى الإسلام بالنفس البشرية إلى مافوق ذلك حين جعل

---

(١) الآية: ٣٢ من سورة المائدة.

قتل الإنسان لنفسه جرماً لا يغتفر كما جرم عملية الإفساد فى الأرض بما يضر من صالح العامة ويحدث إفساد البيئة ، فيفوت على الجماعة حقاً كان لهم أن يتمتعوا به فى حرية تامة.

وكان أول من وجه إليهم هذا الإرشاد هم أولئك الناس الذين لم تكن للنفس البشرية عندهم أى قيمة ، والذين كانوا يقتلون أولادهم من أجل مصالحهم الشخصية ، ولهذا ظل داعية الإسلام عليه ألف ألف تحية وسلام يعلمهم احترام النفس ، وذلك من أجل إصلاح طبائعهم ، وكان فى نُصحه لهم فى غاية التأثير قال صلى الله عليه وسلم: "أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وقَتْلُ النفس ، وعُقُوقُ الوالدين ، وقولُ الزور" وقال: "لن يزال المؤمن فى فُسحة من دينه مالم يُصب دماً حراماً"(١).

وإذا كان هذا التوجيه والتعديل للطبائع قد قُصد به العرب أول الأمر نظراً لتخلفهم وعدم رُقيهم السياسى فإن الأمم الأخرى من حولهم لم تكن فى هذا المجال أحسن حالاً منهم ، وقصص كولوسيوم "COLOSSEUM"(٢) لاتزال حتى اليوم باقية على صفحات التاريخ ، وهى توضح التفنن فى قتل الإنسان بالسيف "GLADIATORY"(٣) لإمتاع أمراء روما الذين كانوا يتفرجون ويتمتعون وهم يشاهدون هذا القتل ! كما لم يكن حشد العبيد فى أقفاص مع الوحوش أو ذَبحهم كالحيوانات ، أو التفرج على إحراقهم لإمتاع الضيوف

---

(١) أبو الأعلى المودودى: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية ، ص١٦ ، ترجمة: د.سمير عبد االحميد إبراهيم الطبعة الأولى ١٤٠٦/١٩٨٥م.

(٢) الكولسيوم: هو مسرح كبير كان يقام للحفلات العامة فى روما القديمة.

(٣) هم العبيد الذين كانوا يتقاتلون حتى الموت لإمتاع الناس فى روما القديمة ، وبأمر من الأباطرة والأمراء والسادة.

والأصدقاء وتسليتهم عملاً شائناً فى معظم بلاد أوربا وأسيا..."(١).

ومما يُؤسف له فى هذا المقام أن كل القوانين التى وضعها البشر لم ترْقَ إلى درجة كبيرة بحيث تحد من مثل هذه الجرائم المنكرة ، بل على العكس من ذلك قننت هذه الأفعال وصارت عُرفاً اجتماعياً حتى فى المجتمعات التى ادعت الرقى والتطور الفكرى قبل الإسلام ؛ "فأرسطو وأفلاطون وهما من أساتذة الأخلاق المعترف بهم، لم يروا أنه من الشائن أن يقوم الإنسان بفصل جزء من جسمه (أى الجنين)، وهكذا لم يكن إسقاط الحمل أمراً غير جائز فى اليونان وروما، فكان للأب الحق الكامل فى قتل أولاده، وكان مشرعو روما يفخرون بهذه الخاصية فى قانونهم والتى تتمثل فى اتساع سلطات الأب على الأبناء لهذه الدرجة، كما أن الفلاسفة الرواقيين STOICS (٢) رأوا أن قتل الإنسان لنفسه ليس عملاً شائناً ، بل عملاً عظيماً وخاصاً إذا قامت مجموعة من الناس بالانتحار فى مجمع كبير ، وكان الزوج حين يقتل زوجته كمن يذبح حيواناً أليفاً ، لأن القانون اليونانى لم يكن يعاقب من يرتكب هذا الفعل"(٣).

كل هذا التردى الذى أصاب البشرية لعله كان أتياً من أن هذه الأمُم لم تستطع التخلص من الخطيئة ؛ حيث جاوزت حدود ما شرع لها من الديانات التى أنزلت إليها ، وعمدت إلى استرضاء الله بالقرابين البشرية وغيرها ، أو بالوسطاء ، "وكان الاعتقاد السائد -خطأ- أن الإنسان ولد متلبساً بالخطيئة ،

---

(١) أبو الأعلى المودودى: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية ص ١٨.

(٢) هم أتباع المذهب الفلسفى الذى أنشأه "زينون" حوالى عام ٢٠٠ ق.م ، وقال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الإنفعال ولا يتأثر بالفرح ، وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة. (د. سمير عبد الحميد ابراهيم. مترجم كتاب: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية).

(٣) أبو الأعلى المودودى: نفس المرجع ، ص١٨.

وأن الإله المتجسد هو الذى يكفرها بيده ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم قرر: أن الدين لايقصد إلى مجرد انتشال الإنسان من الوهدة ، وإقالته من العثرة ، وإنما يريد به السمو إلى الذروة"(١). بمعنى أنه إذا كانت تلك هى قيمة النفس البشرية فى مفهوم هذه الشعوب وفى أعرافها ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم حينما جاء برسالته حمل إليهم شريعة سماوية تعيد إليهم ما يحفظ أدميتهم ، ويخرجهم من حياة البوهيمية التى عاشروها وتمرسوا عليها، بل وقننوا لها القوانيين ، وبهذا يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد جاء محرراً للبشرية من عدوانها ، وموقظاً لروح العقل المقتولة فيها.

"ولقد شبع الناس من كباش الفداء تلك ، والذى تتقبله عقولهم هو أن يكون ارتقاء الإنسان من الحيوانية إلى الروحانية هو المبدأ الأسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء ، وقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تفصيلا لوسائل هذا الإرتقاء الذى هو خاتمة الغايات النبيلة التى تستهدف الرسالات وليس ورائها وراء ، وهذا الارتقاء هو التسامى بالنفس الإنسانية بضبط الغرائز ، والتخلق بالصفات الكريمة التى وصف الله بها نفسه ، ودعانا إلى التحلى بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بصورة مشرقة كالصورة التى رسمها لله رجال الأديان السابقة ، فليس إلهاً غاضباً قاسياً كإله اليهود ، وليس إلهاً أبله يقتل أفضل أبناءه ليخلص بدمه غيره من أبنائه الأشرار وإنما هو الرحمن الرحيم مالك يوم الدين"(٢).

---

(٢) عبد المتعال محمد الجبرى: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ، ص١٦٢ ، (الطبعة الأولى) القاهرة ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) عبد المتعال محمد الجبرى: نفس المراجع ص١٦٢.

ومن ثم تتضح صورة الإسلام المثلى فى تنقيحه لعقول البشر ، وعودته بهم إلى شأنهم الحقيقى فى الحياة بعد ماتردوا فى هاوية الخراب العقلى والزيغ الإنسانى ، فلم يعد هناك مجال لمن يرمون الإسلام والمسلمين بالوحشية والهمجية ومص الدماء ، وأراهم ما يقولون ذلك إلا من أجل التقليل من شأن الإسلام الذى عميت عنه بصائرهم، وغفلت عن مراميه عقولهم ، فراحوا يلصقون للمسلمين ماليس فيهم ولا كان من شأنهم ، ولا نجد فى إظهار ذلك وتبيينه أقوى من عبارة "سيديو"(١) حيث يقول: "مما يدل على عمى بصائر هؤلاء ، وصمم آذانهم عن الحق ، وذلل أقدامهم عن سبيل الصدق والرشد ما فى القرآن الكريم من الآيات الناسخة لما ألفته العرب من القبائح ، كالأخذ بالثأر، والتظاهر بالعدوان ، مثل ما كان ولا يزال شائعاً فى أوربا من التبارز والتفاخر ، وكقتل البنات درأً للعار أو حذراً من الفقر".

وفوق كل ما سبق لم يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على تهذيب النفس البشرية وصقلها فى ميدان الحياة العامة وحالات السلم فحسب ؛ بل ذهب إلى مالا يتخيله عقل أو تجيش به نفس (آنذاك) ، حينما وضع صلى الله عليه وسلم فى الحرب قوانين صيانة النفس وحمايتها ، حين تكون الأنفس متعطشة للقتل وسفك الدماء والتشفى وإلحاق أقصى درجات الإذلال والدمار للعدو ، حيث أخذ صلى الله عليه وسلم فى حروبه مع أعدائه يقنن الوسيلة حتى يحقق الغاية بنبل وشرف رفيعين لم تلتفت إليها أى من الأمم السابقة فى حروبها المستمرة العوان.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: مادام الإسلام دين يرفض الظلم والعدوان ، فَلِمَ إذن فَــرَضَ على مُعْتنقيه الجهاد؟ وحين نجيب عن هذا التساؤل لابد أن نقرر

---

(١) خلاصة تاريخ العرب ص ٦٣.

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قضى من عُمر عودته بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويُجادل خصومه بالتى هى أحسن ، وأصحابه من حوله قِلة مُستضعفون لا يستطيعون أن يَدرءُوا عن أنفسهم العدوان ، ذلك الذى تمخض فى نهايته عن إخراج النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من ديارهم وبلدهم إلى بلد أخرى هى "يثرب".

فلما استقر بهم المقام فى المدينة المنورة ، وظهرت كلمة الإسلام ، واشتد عودهم وكثر عددهم أمرهم الله عزوجل بأن يدفعوا عن أنفسهم الظلم ، ويقفوا فى وجه العدوان بالقوة كيما يحموا أنفسهم ، ويحفظوا عقيدتهم ، ويدافعوا عن أركان دولتهم ، ومن ثم يمكننا أن نستخلص الأسباب التى أجازت للمسلمين حمل السيف والقتال ، وهى كما يلى:

أولا: دفعُ الظلم وردُّ أى اعتداء على الإنسان من جميع الجوانب:

سواء كان ذلك فى نفسه أو أهله أو ماله(١) ، تلبية للنداءات الإليهة فى القرآن الكريم: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُون بِأَنهُم ظُلِمُوا وإن اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الذِّينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيرِ حَقٍّ إلا أَنْ يقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ولَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعضهُم بِبَعْض لَهُدمَتْ صَوَامِعُ وبيَعُ وصَلَواتُ ومَسَاجِدُ يُذْكَر فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيراً ولَيَنصرن اللهُ مَنْ ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز"(٢). فالقتال هنا حق مشروع وواجب ، فرضته طبيعة المواجهة بين الحق والباطل.

والمسلمون لم يقترفوا ذنباً من شأنه أن يُقصيهم أو يُنْفَوا بجريرته من

---

(١) محمد فتح الله الزيادى: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه. ص٩٤.

(٢) الآيتان: ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج.

أرضهم وديارهم ، ولم يكن منهم شيئ يذكر سوى أن قالوا ربنا الله ثم استقاموا ! أليس من حقهم أن يدافعوا عن أنفسهم ؟ وهل من عارٍ في أن يستمر هذا الإذن مبدأ من المبادئ التى يدعو إليها الإسلام فى كل وقت وفى أى مكان تكررت فيه مثل هذه الحادثة ؟ (١) ، وكذا فإن هذا الأذن بالقتال موافق لما تقضى به سنة التدافع بين الناس ، حفظا للتوازن، ودراءاً للطغيان ، وتمكيناً لأرباب العقائد والعبادات من ممارسة شعائرهم والبقاء على عقيدة التوحيد والتنزيه(٢). ثم أرشدت آيات الاذن بالقتال إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى حكمته من يُنصُره ويتقيه ، فلا يتخذ الحرب أداة للتخريب والافساد وإذلال الضعفاء ، وتلبية نداء الشهوات والمطامع.

ثانياً: الدفاع عن المظلومين والمستضعفين:

فما دام الإسلام يمقت الظلم ويُحرّمه ، ويأمر الإنسان بدفع الظلم عن نفسه ، فإنه أيضاً يأمر بدفع الظلم عن الأخرين ، ماظُلموا أو استُذلوا. ولقد طبق الرسول صلوت الله وتسليماته عليه هذا المبدأ حينما ناصر خزاعة (حلفاء بنى هاشم) على قريش -التى نقضت صلح الحديبية- بعد أن استنصروا به ، "وفى هذا الجانب يثير أحد الباحثين اعتراضاً مفاده أنه إذا قيل بأن هذه الحالة تَدَخُلُ فى شئون الغَيْر ، والتدخل اعتداء ، قلنا: إن التدخل مشروع اليوم للسلامة الجماعية ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وهو مشروع أيضاً دفاعاً عن الإنسانية فى حالة اضهاد دولة ما للأقليات من رعاياها ، ومما لاشك فيه أن

---

(١) محمد فتح الزيادى: نفس المرجع ص٩٤.

(٢) محمد جمال الدين محفوظ (اللواء): المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية. ص٤٨ ، دار الأعتصام. القاهرة ١٩٧٦م.

مبدأ نصرة المظلوم هو تطبيق لقوله تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْوى"(١) ، وهو كذلك تثبيت لمبدأ التكاتف والترابط والتضامن الاجتماعى الذى يدعو إليه الإسلام(٢).

ثالثاً : الدفاع عن العقيدة وحرية التدين:

إذ العقيدة هى: أسمى ما يعتز به الإنسان ويدافع عنه ويتحمس لإبلاغه وإيصاله إلى جميع الناس ، لذا نجد أن الإسلام قد شرع الجهاد وحث عليه من أجل إفساح المجال أمام العقيدة حتى تصل إلى الشعوب ، وإزالة كل الحواجز التى تقف بين الدعوة والناس ، وقد وردت آيات كثيرة فى كتاب الله عزوجل تحض على قتال من يَصُد عن سبيل الله ، ووجوب الخلاص منهم ، يفهم من جميع هذه الآيات أن الصد عن سبيل الله هو جُرم يصبح جهاده أمراً ضرورياً، والمقصود بسبيل الله هو "دين الله"(٣).

رابعاً: تحقيق مبدأ التعايش السلمى وإقرار العدالة الإجتماعية بين البشر: حيث يوصى الإسلام بفض المنازعات بالطريق السلمية كما يفهم من قول الله تعالى: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين"(٤) ، ويأمر بالتعاون بين المؤمنين على إقرار السلام والطمأنينة ، وهذا واضح من قوله تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىَ وَلاَ

---

(١) من الآية: ٢ من سورة المائدة.

(٢) محمد فتح الله الزيادى: نفس المرجع ص ٩٥.

(٣) أبو الأعلى المودودى: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية ص٤٦.

(٤) من الآية: ١ من سورة الأنفال.

تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ.."(١) ، كما أَوْجَبَ الإسلام نوعاً من الحروب التى تقوم لفض المنازعات والخلافات ، وإقرار السلم بين الجماعات فقال تعالى: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينَهُما فَإِنْ بَغَتْ إحداهُما على الأُخرَى فَقَاتِلُوا التِى تَبْغِى حَتَى تفِيىءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فأَصْلِحُوا بينَهُمَا بالَعَدْلِ وأَقْسطُوا إن اللهَ يُحَبُ المقْسِطِينَ"(٢) ، فالقتال هنا مشروع لرد الظلم والعدوان عن الفئة المعتدى عليها ، والضرب على يد الفئة الظالمة حتى تثوب إلى الرشد والحق ، لكن دون حَيْفٍ عليها أو مجازاتها عن ذلك بما يوهن من قوتها ويؤدى إلى استذلالها.

خامساً: تبليغ الدعوة وإيصالها إلى جميع الناس:

وقد اقتضت قواعد الإسلام فى حمل السيف تبليغاً لدعوة الله أن يبدأ المسلمون بعرض مناهج دينهم على غيرهم من الأمم ، فإنْ هُم آمنوا به رغبة واختياراً أصبحوا إخواناً لهم ، وإن أبَوْا قبول الدعوة وأعرضوا عن الإيمان طُلب منهم الدخول فى معاهدة سلام كى يواصل المسلمون السير إلى غيرهم من الأمم فى أمن من الغدر والخيانة ، فإن رفضوا عهد السلم فكأنهم بذلك يعلنون الوقوف أمام تبليغ دعوة الإسلام ، ولا يريدون لها أن تنتشر بين الناس وهنا فقط يجب حربهم لابقصد احتلال ديارهم أو نهب ثرواتهم أو إجبارهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما لإخضاعهم حتى لا يكونوا شوكة فى ظهر المسلمين تعوق ركب الدعوة الذى يهدف إلى الوصول إلى غايته المقدسة(٣) ، ومن ثَم

---

(١) من الآية : ٢ من سورة المائدة.

(٢) الآية: ٩ من سورة الحجرات.

(٣) محمد فتح الله الزيادى: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه. ص٩٦.

فلا يكون إعمال السيف فى هذه الحالة من باب إجبار الناس على الدخول فى الإسلام كما ادّعاه البعض وزعمُوه ؛ إذ يُقرر ربنا سبحانه فى كتابه العزيز أن: "لاَإكْرَاه فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَنَ الرُّشْدُ مِن الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُر بالطَّاغُوت ويُؤمن بِالله فقدِ استَمْسك بِالعُروةِ الْوثْقى لا انْفِصَام لَهَا واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم"(١).

ولو كان السيف أداة لنشر الإسلام وفرضه على الناس بالإكراه لكان على كفار مكة أن يؤمنوا جميعاً حين دخلها عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فاتحاً وهم يرتعدون إشفاقاً مما تَوَقعُوا أن يحل بهم ، ولكن ها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يطمئنهم ويُهدىءُ من روعهم بكلماته العذبة الرقيقة فى هذا الموقف الذى رأوه عصيباً: "لاتَثْريب عليكم اليوم. اذْهبوا فأنتم الطلقاء" والأمثلة فى هذا كثيرة وكثيرة وفوق أن تُحصى ، لأن الإسلام عقيدة سمحة ، ومن حاد عنها اليوم بعناده سرعان ما يقبل إليها فى الغد بِعقْله.

سادساً: نكث العهود وخيانة المواثيق:

فهذا مما يتصل بقتال البغاة ، وقد عرف المسلمون أنواعاً كثيرة من المعاهدات ، فكانوا أوفياء بعهودهم ، حريصين على التزام مواثيقهم ، فى حين كان أعداؤهم -وبخاصة اليهود- على العكس من ذلك ، وكذا الكفار الذين كانوا يعقدون مع المسلمين معاهدات السلم والطاعة ، ثم بعد ذلك يُعلنون العصيان على الحكومة الإسلامية(٢) ، وقد نزلت فى هذا الشأن غير آية من

---

(١) الآية: ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٢) أبو الأعلى المودودى: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية ص٤٨.

كتاب الله عزوجل تدعو المسلمين إلى قتال هؤلاء الغادرين ، فمن لايُؤمَنُ عهدُهُ لاتُرعَى حُرمتُه ، ومن يبدأ بالعدوان ليس له جزاء إلا القتال.

سابعاً: استئصال العدو الداخلي وتأديب الخونة والمتآمرين والخارجين على القانون:

فبالإضافة إلى العدو الخارجي هناك عدو داخلي أيضاً ، قد يكون صديقاً في الظاهر إلا أنه يبطن الشر للإسلام والمسلمين ، يُريد اقتلاع جذور الدعوة، وهذا يتمثل بجلاء في " المنافقين" الذين تتزعزع بأعمالهم قواعد الدولة وتتخلخل أركانها ، كما تمثل ذلك في العرب الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وامتنع فريق منهم عن أداء الزكاة فَعطَّل رُكناً أساسياً من أركان الدين ، كما ادَّعى نفر منهم النبوة ، فحُق للمسلمين أن يحاربوهم ويستأصلوا شأفتهم مالم يعودوا إلى الحق ويركنوا إلى الصواب.

ومع إباحة الإسلام لتلك الأنواع السابقة من الحروب فإنه وضع كثيراً من المبادىء الإنسانية التي تحد من أخطارها وتجعلها في نطاقات محدودة ، وتكفل لها أداء مهمتها في حماية الحق والعدل والقضاء على الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. وأهم تلك المبادىء: عدم مقاتلة غير المقاتلين. وعدم اتباع الفارين والهاربين لإبادتهم. وعدم التعرض لوسائل الحياة بالتدمير كالزروع والحيوانات. وعدم أخذ العدو على غرة كما تفعل الدُول التي تدَّعي الحضارة والمدنية في العصر الحديث(١). إن الحرب في الإسلام هي كما يُصورها أمير الشعراء:

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءُ

---

(١) محمد فتح الله الزيادي: نفس المرجع ص٩٧.

وقد التزم المسلمون بكل هذه المعانى السامية والتقنينات القتالية الرفيعة، فكانت الحرب فى الإسلام نموذجاً رائعاً للحفاظ على الأرواح ومقومات البشرية والحياة بوجه عام ، مما لم يُسجِّل له التاريخ له مثيلاً من قبل الإسلام.

فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب من سَرِيَّة كان بعث بها لقتال المشركين يوم "حنين" فأفضى بهم القَتْل إلى الذرية ، فلما عادوا سألهم: ماحملكمْ على قتل الذرية؟ قالوا يارسول الله. إنما كانوا أولاد المشركين. فقال: "وهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذى نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها"(١).

ألا ماأجمل أن يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم الفطرة فى قلوب أطفال أعدائه ، ويُعاتب عليها أصحابه ، فى مجتمع تردى فى احتقار النفس البشرية وإزهاقها إلى مالم تنزلق إليه الدواب التى لاتعقل ، لكنها نوارنية الإسلام وتعاليمه السامية التى تحرم تعريض غير المقاتلين من الأعداء للأذى أو القتل ، وليس هذا وحسب ؛ إذا يشتد غضب النبى صلى الله عليه وسلم حينما يجد جثمان امرأة من الأعداء مقتولة فى بعض المغازى ، فيحذر أصحابه من ذلك ويشدد النكير عليه، وينهى عن قتل النساء والصبيان(٢).

ولم يكن حرص النبى صلى الله عليه وسلم على صيانة النفس أمراً خاصاً بالغزوات التى يشهدها ، بل إنه أمر عام يحرص صلوات الله وسلامه عليه على أن يظل مراعياً له مُهتمـــاً به حتى ولو لم يشهد القتال ؛ فإنه يُوصى

---

(١) أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصارى. ت١٨٢هـ): الـــرد على سير الأوزعى ص١٢٢ ، الحاشية رقم (٢) بيروت (د.ت).

(٢) هـذا معنى حديث نبوى أثبته الإمام مالك عن أبى بكر بن أبى شيبة .. عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه (صحيح مسلم ج١٢ص٤٨) طبعة بيروت(د.ت).

قادته وأصحابه به ، لأنه منهج تشريعى لا مجرد اجتهاد فردى.

ومن ذلك ما يرويه سليمان بن بريدة عن أبيه فيقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوْصاه فى خاصته بتقوى الله ومَنْ معه من المسلمين خيراً ، ثم قال: "اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال "أوخلال" فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ، فإن أبوْا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيىء شيىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فَسَلْهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبَوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمه نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإن تخفروا ذمَمَكُم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حُكمك ، فإنك لاتدرى أتُصيب حكم الله فيهم أم لا"(١).

هذه الوصية النبوية الجامعة لكل أركان القيادة والنصيحة والإرشاد جديرة بالدراسة والتأمل ؛ إذْ هى ترسم ملامح السياسة الحربية فى الإسلام ، وتقنن لهذه العملية مايحفظ من شأن المسلم وحقوق عدوه ، فليس الإسلام قهراً ولا

---

(١) صحيح مسلم ج١٢ ص٣٩.

جبروتاً غشوما ، إنما يعالج كل الأمور بالحكمة التى تحتويها سماته وقيمُهُ الأصلية. وهى وصية تصلح للقادة والمحاربين فى كل زمان ؛ لايتخلف أىّ من بنودها ، ولا يتعطل شيىء من نُصوصها ، مهما تباعدت الأزمان ، ولكن هيهات لمن لايدين بالإسلام أن يفيد بشيىء منها ؛ إذ فى البعد عن الإسلام تتاح الفرصة للنفس البشرية كى تقترف المحرمات والآثام ، فلا يعصمها عاصم، ولا يحُول بينها وبين شُرورها حائل ، إلا أن تهدى بنور الحق ، وتُعْمِل ما استُودع فيها من عقل.

وكان أول ما يلفت النظر فى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم توقيتها الذى شُرعت فيه ؛ إذ العالم كله آنذاك -وكما قدمنا أنفاً- تسُودُه الفوضى وتسوسه القوة الخرقاء التى لا تركن إلى عقل تعمله ولا دين تستفتيه، فجاءت تلك الوصية تقنيناً نبوياً فى حينه ، وإنقاذاً للبشرية يقتضيه المقام. كما كان من الجدير بالملاحظة أن تنبع هذه الوصية من جانب المسلمين الذين كانوا مايزالون قلة فى خضَمِّ هذا العالم الزاخر بالشرور، لكن المبادىء السامية لا تتخير الزمان ولا تنتظر التكاثر والرجحان ، وإنما تُولد فى حينها وتقوى بالالتزام بمضمونها والتأكيد على دوام صيانتها وإعمالها فيما وُضعت له.

يُؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم بادىء ذى بدءٍ على تقوى الله ، يلتزمها القائد والجند لتكون الإطار العام الذى تقع من خلاله كل الأحداث وترجع إليه فى بدئها وانتهائها ، ثم يشير صلى الله عليه وسلم بقوله: "اغزوا باسم الله فى سبيل الله" إلى نبل الغاية وشرفها فالقتال والغزو هنا ليس لمصلحة دنيوية ، ولا لعصبية حمقاء ، ولا لغرض النفوذ والسيطرة كما كانت الدوافع الحربية السائدة فى العصر ، وإنما الغاية نشر الإسلام وإنقاذ الأمم

التى غلبتها نفوسها وأهوائها لتنضم إلى هذه الساحة الرحبية ، وتتمتع بحياتها على الأرض التى هى مستخلفة فيها.

ثم يُقنن النبى صلى الله عليه وسلم قيوداً محكمة للقتال كيلا يكون أشبه بما كان من قبل ؛ ففى قوله صلى الله عليه وسلم: "اغزوا ولا تغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً" بيان لأسلوب القتال الذى لاينصاع لأهواء النفس الشريرة الدموية ؛ إذ القتال هنا ليس غاية تحل من أجلها كل وسيلة ، وإنما الغاية أسمى من ذلك فلابد أن تكون الوسيلة راقية ، والسيف ملجماً فى غمده لاينسل إلا لمن يستحقه.

وقبل كل هذا فإن إعمال السيف مؤجل وموقوت بحين ، يسبقه إعمال العقل ومخاطبة الفكر والروح بدعوة إلى الله ونورانية عبوديته التى تسمو بالإنسان عن عبودية الإنسان ، فالعبودية لله شرف ومكانة ، وعبودية البشر ذل ومهانة، لأن مقصود الشريعة إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن العمى إلى الهدى، فإذا لم تطمئن أنفسهم لهذا ولم يُقبلوا عليه فليبقوا على ماهم عليه ، وتشملهم حماية الدولة الإسلامية التى تحكم بالعدل وتزن بالقسط، على أن يؤدوا فى مقابل هذه الحماية ما كان يسمى "بالجزية" التى كانت معروفة منذ القدم ، وهى فى ظل الإسلام لاتعدو أن تكون شيئاً قليلاً لا يُرهق كواهل المستأمنين ، ولا يضطرهم إلى بيع ممتلكاتهم أو أبنائهم لسدادها كما كان يحدث من قبل.

وليس هذا فحسب ؛ بل إن أهل الذمة الذين يبقون على دينهم ويقبلون إعطاء الجزية يستوصى بهم الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم خيراً لتتأكد لهم حقوق الحماية التامة والحرية الدينية المطلقة وحسن الجوار ، وعلى المسلمين الدفاع عنهم ضد كل من يرميهم بشر ، كما كان على المسلمين عدم

إلحاق الأذى بهم امتثالاً لأمر النبى صلى اللـه عليه وسلم حيث قال: "من أذى ذمياً فقد آذانى".

ولم يدرك أهل الكتاب -آنذاك- خطورة فرض الدين بالقوة والإكراه إلا بعد أن ظهر ذلك من خلال العلاقات الإسلامية التى تكونت مع أمم العالم حينئذ سواء بالسلم أو بالحرب ؛ فها هو المستشرق رايموندوس لولوس يتوصل من خلال استعراض تاريخ الأندلس السياسى بأن لاسبيل إلى فرض تعاليم الكنيسة بوسائل الإكراه الظاهر(١) ، كما ثبت له كذلك أن المشاكل السياسية الدينية بين الأمراء المسيحين هى التى صَعَّدت من حدة الخلاف الدينى وميل كثيرين إلى الإسلام.

وإذا تذكرنا ماكان من تنكيل يهود اليمن بمسيحيى نجران وحرقهم إياهم فى أخاديد مستطيلة حُفرت لهم فى الأرض ، وما ترتب على ذلك من صراع مرير بين يهود اليمن ونصارى القسطنطينية والحبشة بسبب هذا الجُرم الشنيع مما أدى فى آخر الأمر إلى شيوع النصرانية شيوعاً سياسياً مالبث أن انزوى تماماً ومن قبله اليهودية عندما جاء الإسلام.

والأديان دائماً لاتُعتنقُ بحد السيف ، كما لايمكن زحزحة من آمن بها ولو أدى به الأمر إلى الهلاك ، ودروس الصراع العنيف بين اليهودية والمسيحية قبل الإسلام كثيرة سجلتها صفحات التاريخ ، لكن لم يتبين عدم جدوى هذه الدروس إلا بعد أن رسم الإسلام والمسلمون سياستهم واتضحت معالمها ، "فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر" ، ويكفينا فى هذا أن نرى أبعاد

---

(١) عمر لطفى العالم المستشرقون والقرآن ص٤٨ مطبوعات مركز دراسات العالم الإسلامى .

الاضطهاد الواسع مابين بيزنطة واليعاقبة والنساطرة وما آلت إليه نتائجه حتى نحكم متى يكون الإكراه وسيلة لفرض عقيدة أو اقتلاع أخرى.

وعليه ، فإنه إذا لم تنشرح صدور الأعداء للإسلام الذى هو الغاية ، ولم يقبلوا الانضواء تحت راية المسلمين ويستظلوا بحمايتهم فى مقابل هذا القدر اليسير المسمى "بالجزية" فإنهم بذلك يكونون قد رفعوا عصا المخالفة وأضمروا الغدر فيئول الأمر إلى القتال الذى هو آخر الخيارات ، ومع ذلك فهو خيارٌ مُقنن مرسوم له الطريق المعتدل ، حتى لايكون قتال اليوم أشبه بقتال البارحة ، ثم تظهر من ملامح الوصية النبوية -كذلك- غاية الإسلام فى أن الناس جميعاً سواء ، لايُفرقهم لون أو جنس أو واسطة ، فمجرد أن يعلن العدو أو بعض أفراد منه إسلامهم يصيرون كالمسلمين سواء بسواء متساوين فى كل الحقوق والواجبات، لايفضل السابق اللاحق ، ولا العربى العجمى ، فلمن أسلم ما للمسلمين وعليه ماعليهم.

ولم تكن هذه هى الوصية النبوية الوحيدة التى تنصب ميزان العدل والإحسان فى معاملة أهل الذمة ؛ وإنما تعددت توجيهات النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الجانب ، مما يؤكد حرصه على حسن العلاقة وإحسان المعاملة ، فها هو فى موقف آخر يُوصى قائده معاذ ابن جبل رضى الله عنه وهو خارج فى إحدى الحملات فيقول له: "إنك تأت قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم بأن الله افترض عليهم خَمْس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هُم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتعطى لفقرائهم ، فإن أطاعوك لذلك فإياك وكَرَائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها

وبين الله حجاب"(١).

وقد شهد لهذه الشهامة الإسلامية التى تترفع عن الدنايا بعض أعداء الإسلام من حيث لايشعرون ، بل من حيث لايقصدون ، ولعل الذى دعاهم إلى هذه الشهادة أنهم لم يَرَوْا من قبل - فى كل تواريخهم - ما يماثل أخلاق المسلمين فى الحرب ، كما أن مرارة الاضطهاد والتعسف الدينى والسياسى مازالت فى حُلوقهم حتى ذلك الحين بل وإلى الآن ، فبهرتهم عدالة الإسلام وشفقته حتى فى الحروب ، وهذا ما عبر عنه (ول . ديورانت) بقوله: (ولم يكونوا (أى المسلمين) فى حروبهم همجاً متوحشين)(٢).

وحُق لهؤلاء أن يشهدوا للمسلمين بهذا ، فها هى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل تضيف إلى ماسبقها من آداب القتال وعرض الإسلام أبعاداً جديدة ؛ إذ تحتوى على دعوة أهل الكتاب للإسلام بالحسنى ، ثم عرض مبادىء الدين الحنيف عليهم إن هم قبلوه ، كما تشتمل مبدأ رفيعاً لم يسجله تاريخ الأمم التى سبقت كلها ألا وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم...."إلخ ، ومعناه أن الذمى إذا دخل فى الإسلام وأقام الصلاة وآتى الزكاة حرم بعد ذلك ماله أن يُمس أو يؤخذ منه شيىء ظلماً وبدون وجه ، وإن لم يقبل الإسلام وأدى الجزية فنفس الشيىء ، لايمس ماله ولا يظلم ولا يكلف فوق طاقته.

ومن صور التسامح الأسلامى التى لا تقارن ما كان من أمر رهط النصارى الـــذين قدموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليتحدثوا معه فى شئون دينية ،

---

(١) عبد المنعم محمد الشيخ: الحرية فى الإسلام . ص٦٦.

(٢) ول . ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ص٧٢.

فلما حان موعد صلاتهم استأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم ليُصلُّوا خارج المسجد النبوى ، فأبقاهم النبى صلى الله عليه وسلم وأذن لهم بالصلاة فى المسجد"(١).

ولم تقتصر آداب القتال فى الإسلام على أعمال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحرب أو توجيهاته إلى رجال قيادته وجنوده ؛ بل إن الله عزوجل قد أنزل من عنده ما يعزز تلك الآداب ويؤكد تلك القواعد ويرسخها فى نفوس المسلمين، ومن ذلك ما حدث فى غزوة "حنين" فى العام الثامن الهجرى ، حيث تباهى المسلمون بكثرتهم وأيقنوا أنهم لن يُغْلبوا عن قلة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يكسر فى نفوسهم حدة الغرور واعتزازهم بقوتهم ، وشاءت حكمته أن تدور الدائرة عليهم فى الجولة الأولى ، وما كان ذلك منه سبحانه إلا ليلتمسوا مع قوتهم وعدتهم قوة الخالق وحوله ، إذ الهدف الأساسى تبليغ دين الله ، فمنه النصر وبه القوة والمنعة ، وهو ما حدث بالضبط ؛ إذ أيدهم الله فى النهاية بنصر من عنده ، وأعزهم بتأييده كما قال فى كتابه المحكم: "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ"(٢).

ففى هاتين الآيتين تظهر كل هذه المعانى ؛ حيث يجعل الله عزوجل قضية الجهاد دفاعاً عن الدين ودولته قضية الهية ينفذها المسلمون ، ويتجلى هذا

---

(١) عبد المنعم محمد الشيخ: الحرية فى الإسلام .ص ٦٦.

(٢) الآيتان: ٢٥،٢٦ من سورة التوبة.

بوضوح أكثر فى آيات غزوة بدر: "إِذْ تَستَغيثُون ربكُم فاستَجَابَ لكُم أنـى مُمِدُّكُمْ بألْفٍ مِنَ المَلائِكةِ مُردِفِينِ * وَمَاجَعَلَهُ الله إلا بُشْرى ولتطمئِـنَّ بـهِ قُلُوبُكُم ومـا النَّصْر إلا مِنْ عِنْدِ اللـهِ إن اللـه عزيـزٌ حكِيـم * إِذْ يُغشّيكُم النعاسَ أَمنةً مِنْه ويُنَزِل عَليكم مِنَ السـمَاءِ مـاءً لِيُطَهركُـم بـه ويُذْهِبَ عنْكم رِجْز الشيطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلوبكم ويُثَبت بـهِ الأقـدام*إِذْ يُوحِي رَبك إلى الملائكة أنى معكم فثبتُوا الذين آمنوا سألُقى فى قُلُـوبِ الذين كفَـرُوا الرُّعْب فـاضْرِبُوا فـوْق الأعنَـاقِ واضْرِبُـوا مِنْهـمَ كُـلَّ بَنَانْ"(١).

ثم يؤكـد ربنـا سبحانه علـى أصل قضيـة الجهـاد وأنهـا مـن عنـده تعـالى وليست انفعالاً بشرياً يقود إلى امتشـاق السيف وإراقـة الدمـاء ، فيقـول: "ذَلِـكَ بِأَنُّهُم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُوله وَمَنْ يُشَاقِقِ اللــه وَرَسـوله فَـإِنَّ اللــه شَـدِيدُ العِقَاب"(٢).

وهكذا نلحظ أن الإسلام قد هذب أسلوب القتـال بمـا يتفـق وصيانـة النفس البشرية ؛ فلا حرب إلا لضرورة تقتضيها ، ولا يُرفع السيف فى وجـه الجميـع ، من حارب ومن لم يُحارب ، بل يُقاتَل المقاتل ويُترْكُ مَنْ دونـه ، وحـرم التمثيل بجثث الأعداء والتشفى منهم ، كما قُننت معاملة الأسرى ، ولا أبلغ فى ذلـك مـن الأمثلـة ممـا وقـع مـن النبـى صلـى اللـه عليـه وسلم بنفسـه ؛ حيث أراد بعـض الصحابـة فـى غزوة بنـى المصطلـق أن يتزوجوا مـن نسـائهم المسـبيات زواج

---

(١) الآيات: ٩-١٢ من سورة الأنفال .

(٢) الآية: ١٣ من سورة الأنفال.

متعة ، فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأباه ، ثم قام بعمل خالد يجمع بين العقل والإنسانية وبين قوانيين الحرب ؛ إذ تزوج بإحدى سبايا بنى المصطلق(١) ، مما حدا بأصحابه إلى إطلاق من تحت أيديهم منهن إكراماً للنبى صلى الله عليه وسلم .

تلك هى روح القتال فى الإسلام والتى طبقها النبى صلى الله عليه وسلم تطبيقاً عملياً على الرغم من أنه كان دائماً المظلوم والمعتدى عليه. وتصور الدكتورة لورافيشيا فاغليرى فى كتابها "دفاع عن الإسلام"(٢) هذه الروح التى تجسدت فى حروب النبى صلى الله عليه وسلم مع أعدائه أروع تصوير وإبداع بيان ، فتقول عن الصراع الذى دار بينه وبين أعدائه وبين أعدائه أنه صراع سياسى ، وأن " كان عليه (أى النبى صلى الله عليه وسلم) أن يختار بين الموت على نحو مُذل ، وهو أمر لايتفق مع رغبات الله ، وبين القتال لإنقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهلاك ، كان الصراع يدور بين الفوضوية ومادية الوثنيين المتبربرين ، ومخاصمات وأكاذيب اليهود غير المتسامحين على الرغم من تحضرهم البعيد من ناحية ، وبين مثل أعلى رفيع فى التجدد الدينى والاجتماعى ، من ناحية ثانية " وذلك كان المثل الأعلى الذى أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يحققه بأى ثمن ، فقاتل قتال الرجل الوديع

---

(١) هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار قائد بنى المطلق ، وكانت قد وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسها ، فأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كتابها وتزوجها ، فأعتق مائة أهل بيت من قومها بنى المصطلق لكونهم أصهاره صلى الله عليه وسلم (سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص٥٢.

(٢) تنظر صفحات ٣٠ ، ٣١ منه ، والكتاب تعريب منير البعلبكى (طبعة خامسة) بيروت ١٩٨١م.

ضد الغطرسة والطغيان ، أو قُلْ قتال الرجل الذى لايرغب فى الحرب ، ولكنه مُكْره على منازلة أولئك الذين أصروا على تدميره بالقوة ، وإنما نهض بهذه المهمة وأنصاره قلة قليلة ، ولكنه نهض بها واثقاً من أنه كان يمهد السبيل لإيصال الحقيقة إلى كثير من النفوس ، ومن أنه كان مكلفاً بأن يهدى الناس سواء السبيل فى غمرة الظلام ، وكان لدن وصوله إلى المدينة قد مَدَّ يَدَ الصداقة – أول مامدَّها – إلى اليهود الذى مثلوا فى هذه المدينة جماعة غنية مزدهرة ، لقد دعاهم إلى التعاون الصادق فى وحدة سياسية واجتماعية . ولكنه حين أدرك أنهم معادون له عداءً مطلقاً وأنهم مصرون على اتباع سبيل خاطئة غادرة تَعَيَّن عليه أن يقاتلهم ويعاقبهم ، كانت الحرب ضد الأعداء الخارجين ضرورة من ضرورات العصر ، فلم يكن فى ميسور أيما عربى من الصحراء أن يُكيف نفسه لحالة من السلم الدائم بعد أن تعود طوال قرون بكاملها أن يخوض غمار الحرب كعمل سَوِىّ ، وهكذا ، ما إن سَوَّى محمد صلى الله عليه وسلم النزاعات الداخلية حتى اضطر إلى مواجهة عدوان قريش وتلك القبائل التى لم توقع معه أيما معاهدة ، ولكن الحرب بمخاطرها وانتصاراتها العسكرية ساعدت على جعل الجماعة الجديدة كالبنيان المرصوص ، لقد قدمت وسيلة البقاء الضرورية للرفاق الذين هاجروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ... لقد كانت الحرب دائماً وسيلة لحماية الدين الجديد وتعظيمه ، لاغاية فى ذات نفسها ، كانت دفاعاً ضرورياً لاعدواناً جائراً ....فقد كان العرب المنتصرون مستعدين دائماً حتى وهم فى أوج قوتهم وانتصارهم لأن يقولوا لأعدائهم: "ألقوا السلاح ، وادفعوا جزية يسيرة نسبغ عليكم حماية كاملة ، أو اتخذوا الإسلام ديناً وادخلوا فى ملتنا تتمتعوا بالحقوق

نفسها التى نتمتع بها نحن"(١).

ثم تتألق الدكتورة: لورافيشيا فاغليرى فى دفاعها عن الإسلام فتقول(٢): "وإذا نظرنا إلى ما أُوحِيَ إلى محمد أو إلى الفتوح الإسلامية الأولى سَهُل علينا أن نرى مدى الخطأ الذى ينطوى عليه الاتهام القائل بأن الإسلام فرض بالسيف، وأن انتشاره السريع الواسع لا يمكن تفسيره إلا بهذه الوسيلة" ، يقول القرآن: "لاَ إكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُر بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهَ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاانْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيم" ، ويقول: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"(٣) .

---

(١) لورافيشيا فاغليرى : دفاع عن الإسلام ص٣٢.

(٢) المرجع السابق والصحيفة.

(٣) اختتمت الدكتورة: لورافيشيا حديثها في موضوع انتشار الإسلام بهذه الآيات الكريمة ، فكأنها بذلك قد استوفت مبحثاً مُهما فى بابه وعللت لكل أمر واستدلت لما تقول بالحجة والمنطق والواقع الحدثى والتاريخى ثم جاءت فى النهاية بهذه الآيات التى تدلل على أن الإسلام لم يأت ليجبر الناس على اعتناقه بل لِكُلٍّ ماشاء والأمر اختيارى لايفرضه رسول ولا يُقاتِلُ من أجله جُنْد.

الفصل الرابع

* لمـــاذا الفتـــح ؟ *

القتال في الإسلام :

إذا كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم قدْ بعث بالدين الحق واتخذ طريق الصدق فإنه قد أوذِى فى سبيل ذلك كثيراً ، وتكررت محاولات تعويقه عن إنجاز ما أريد منه ، وحُورب هو والمسلمون معه حروباً عنيفة متصلة ، وكانوا قلة ، فلم يُسمح لهم بالقتال ما داموا فى غير كفاية له ، وعلى ذلك فإن الإسلام قد انتشر فى العصر المكى بأسلوب التبليغ فقط ، وكان المسلمون كلما ضجوا مما يُلاقونه وعزموا على الرد على مقاتليهم يشير إليهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: "إنى لم أومر بالقتال".

فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى يثرب ، وبدأت أمارات الدولة الإسلامية فى التكون والظهور ، وبئس المسلمون من كثرة الاعتداءات عليهم ، أنزل الله عزوجل الإذن لهم بالقتال فى قوله تعالى: "أُذِنَ لِلذِّينَ يُقَاتَلُون بِأنهُم ظُلِمُوا وإنَّ اللـه عَلَى نَصْرِهِمْ لقدير * الذين أُخْرِجُوا من دِيَارِهِم بغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أن يَقُولُوا ربُّنا الله ولَوْلا دفْع اللهِ النَّاس بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لهُدمتْ صوامعُ وبيعُ وصلواتُ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسم الله كثيراً ولينصرُنَّ اللهُ من يَنْصُرُهُ إنَّ الله لقوىٌّ عزيز * الذين إنْ مكنَّاهُم فى الأرض أقامُوا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأمرُوا بالمعْروفِ ونَهوا عن المنْكرِ ولِلَّهِ عاقِبةُ الأُمُور"(١).

تناولت هذه الآيات أمر الإذن بالقتال معللة لهذا الإذن بسبب ظلم المسلمين وإرغامهم على الخروج من ديارهم بغير حق ، مُبينة أن هذا القتال تقتضيه

---

(١) الآيات: ٣٩-٤١ من سورة الحج.

سنة التدافع بين الناس خفظاً للتوازن ودرءاً للطغيان ، وتمكينا لأرباب العبادات والديانات من آداء عبادتهم ، وإبقاء على عقيدة التوحيد والتنزيل(١) بمعنى أن المصلحة الدينية تقتضى هذا القتال ؛ فلم يذكر فى الآية المباركة مساجد المسلمين فقط ، بل ذكر ثلاثة أشياء أخرى: الصوامع. وهى أماكن عبادة الرهبان المسيحين ومعابد المجوس وأماكن عبادة الصابئة(٢). والبيع. وتدخل فيها دُورُ عبادة المسيحين وكذلك اليهود. ثم الصلوات.

وتدخل فيها جميع أماكن العبادة الإلهية ، ثم يأتى فى آخر كل هذا ذِكْرُ المساجد ، "والحكمة من هذا هى أن الله لَوْ لَمْ يدفع الظلمة من الناس عن طريق العادلين من الناس فإن الفساد يستشرى، ولاتنجو منه حتى دور العبادة، ولايُمكن لأحد أن يتصور الأضرار الناجمة عن ذلك"(٣).

من هنا كان الإذن للمسلمين فى القتال لدفع الاعتداء وليس لإكراه الناس على الدخول فى الإسلام، ومما يؤكد هذا قول الله عز وجل: "وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاتَعْتَدُوا إن اللهَ لايُحبُّ المُعتَدِين"(٤)، فالقتال إذا لم يشرع لذاته، وإنما لابتداء الغير به. كما كان من إتمام الدستور السماوى فى القتال توجيه الله عزوجل المسلمين بقوله: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم واتقُوا الله واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ

(١) حامد محمد على(الشيخ): الجهاد فى ضوء الكتاب والسنة. ص١٧، من سلسلة كتب إسلامية أصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢) أبو الأعلى المودودى: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية ص٢٧.

(٣) المرجع السابق والصحيفة.

(٤) الآية: ١٩٠من سورة البقرة.

المتقين"(١).

ثم يبرز الحد الفاصل بين القتال من أجل الحق والقتال فى سبيل الباطل حيث يقول تعالى: "الذينَ آمنُوا يُقاتِلُون فى سَبيلِ اللـه والذينَ كَفرُوا يُقاتِلُون فى سبيلِ الطاغُوتِ فقَاتِلُوا أوْلياءَ الشيطانِ إن كَيْدَ الشيطانِ كَانَ ضَعِيفاً"(٢)، فهذا قولٌ فَصْل يُوضح الحد الفاصل بين الحق والباطل؛ فأولئك الذين يقاتلون فى سبيل الظلم هم أولياء الشيطان، والذين يقاتلون من أجل القضاء على الظلم هم المجاهدون فى سبيل الله. "إن كل قتال يهدف إلى إيذاء الناطقين باسم الله دونما ذنب اقترفوه، هو قتال فى سبيل الطاغوت، لاصلة له بالله، ومثل هذا القتال ليس من عمل أهل الإيمان"(٣). فالقتال فى الإسلام إنما شرع للدفاع عن النفس وتأمين الدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها ، ورداً على نكث العهد والخيانة ، فهو إذن ليس قتال أعداء ومبادأة بل أنه يجنح بالمسلم إلى سلم من سالمه ، حيث يقول ربنا سبحانه: "وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجنَحْ لَهَا وتَوَكلْ عَلَى اللَّه..."(٤) ويقول: "لاَيَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقاتلوكم فى الدِّين وَلَمْ يُخْرجُوكُم من ديارِكمْ أنِ تَبرُّوهُم وتُقْسطُوا إليهِم إنَّ الله يُحب المُقسطين * إنما ينهاكم الله الذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّين وأخْرجُوكَمْ من ديارِكُم وظَاهَرُوا على إخْراجِكُم

---

(١) الآية: ١٩٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٧٦ من سورة النساء.

(٣) أبو الأعلى المودودى: نفس المرجع ص٢٩.

(٤) من الآية: ٦١ من سورة الأنفال.

أن تَولَّوهُم ومن يَتَولهم فأولئك هُم الظَّالِمُون"(١).

ومن ثم فإن المسلم الذى يخوض غمار الحرب لهذه الأسباب يُعد مجاهداً فى سبيل الله وفى سبيل إعلاء كلمة الحق والدفاع عنها ، مما يجعله يحظى بمرضاة الله عزوجل ، حيث يجُود بنفسه ويبذل ماله فى سبيل تلك الغاية ، وقد نزلت مواضع عديدة فى كتاب الله عزوجل وفى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم تؤكد على فضل المجاهد وتحث على الجهاد المشروع ، وما لهذا المجاهد عند الله من عظيم الأجر وواسع المغفرة.

---

(١) من الآية: ٦١ من سورة الأنفال.

(٢) الآيتان: ٨،٩ من سورة الممتحنة.

بعد أن تمهدت جزيرة العرب للإسلام وقَبِلَه مُعظم سكانها ، وبعد أن تأكد للمسلمين أنه هو الدين الخاتم لكل ماسبق من الشرائع ، وأن النبى محمد صلى الله عليه وسلم هو نبى آخر الزمان المشار إليه فى كل الكتب السابقة ، فلا نبى بعده ، وثبت أن الإسلام دين عام لكل البشرية التى عاصرت زمن البعثة النبوية ، ولكل من يحيا على الأرض إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

بعد هذا كله صار من الواجب على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه وَمِنْ بعده أن يهتموا بأمر تبليغ الدعوة إلى كل الأمم من حولهم ، بل صار من حق تلك الأمم أن تصلهم أنوار الشريعة التى تحوى مناهج الهدى والصلاح لكافة شئونهم ، ويصير هذا الأمر (أى التبليغ) أمراً واجب النفاذ ، بالتبليغ تارة، وبالقدوة الحسنة المستقيمة التى تظهر فى سلوك المسلمين والتى تكون فى حد ذاتها طريقاً مؤثراً وقوياً من طرق التبليغ تارة أخرى. ثم بالحرب إن دعت إليها ضرورة الاحتكاك بين المُبَلِغ والمُبَلَّغ.

قد صار إذن أمر التبليغ فرضاً مقدراً على النبى صلى الله عليه وسلم وأمته كما بينه الكتاب العزيز ، حيث يأمر الله تعالى نبيه بذلك فيقول له: "ياأيها الرسولُ بَلِّغ ماأُنْزِلَ إليْكَ مِنْ رَبكَ وإنْ لَمْ تَفْعَل فما بَلَّغْت رِسَالَتَه..."(١) ، وكما يبدو من قوله تعالى: "وَمَاأَرْسَلْنَاك إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين"(٢) ، وقوله: "وَمَاأَرْسَلْنَاك إلاَّ كَافَّةً لِلناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِن

---

(١) من الآية: ٦٧ من سورة المائدة.

(٢) الآية: ١٠٧ من سورة الأنبياء.

أكثَر النـاسِ لايَعلَمُون"(١).

وإذا كان ذلك كله قد بـدا وضوحـه وكمُل بيانـه ، فـإن الجهـاد إذن قد كـان لغاية تَهُم أهل البلاد المفتوحة بقدر ماتَهُم الفاتحين أنفسهم ؛ مع أن الإسـلام لـم يستهدف إكراه النـاس على الدخول فيه واعتناقـه ، بقـدر مـا يهـدف إلـى إيصـال الدعـوة إليهـم وتركهم إلى عقولهـم يتحـيرون ماشـاءوا ، وكـذا لـم يسـتهدف المسلمون بالجهاد الحُصُول على المغانم والأسلاب والفيوءات ، "ولكن المؤمنين كانوا يرجون حماية العقيدة الإسلامية والتى من أهدافها إعـلان تحريـر الإنسـان إعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فـى كـل جوانبـه ، ولا يكتفـى بالبيـان النظـرى السـلبى ، ولـم يكـن الجهـاد مشـروعاً مـن أجـل حمايـة الوطـن الإسلامى فى حد ذاته ، وإنما حماية العقيـدة الإسـلامية والنظـام الإسـلامى الـذى يسود فيه هذا المنهج ، وهذا هو الهدف الأول عنـد المجـاهدين المسـلمين"(٢) ، وينبنى على هذا أن تكون حماية دار الإسلام حماية للإسلام وعقيدته.

مع العلم بأن حماية دار الإسلام والعقيدة الإسلامية ليست الهدف النهـائى ، وليست حمايتهـا هـى الغايـة الأخـيرة لحركـة الجهـاد الإسـلامى ، وإلا لقبـع المسلمون فى ديارهم ، وادخروا قوتهم وعتادهم وتفوقهم الحربى حتى يطـاولهم معتدٍ عليهم فيردونـه ، إنمـا كـانت حمايـة دار الإسـلام والعقيدة الإسـلامية هـى الوسيلة لقيام حُكم الإسـلام فـى الأرض ، ثـم لاتخاذهـا قـاعدة انطـلاق إلـى

---

(١) الآية: ٢٨ من سورة سبأ.

(٢) فـايـد حمـاد محمد عاشور (الدكتور): جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية. ص١٦ (طبعة أولى) بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

مختلف أنحاء الأرض والنَّوع الإنسانى بجملته ، فالنوع الإنسانى هو موضوع هذا الدين ، والأرض هى مجاله الكبير(١).

ولقد كان من الإشارات إلى هذا الفتح ما وقع للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون من حوله فى حفر الخندق سنة (٥هـ) ؛ إذْ نَشِطُوا فى إتمام هذا العمل الذى أشار إليهم به سلمان الفارسى رضى الله عنه(٢) ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب يومئذ بالمعول فصادف حجراً صلداً كَسَر المعول ، فأعلم الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا ، فهبط إلى الصخرة ومعه سلمان الذى كان خبيراً بحفر الخنادق ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول فضرب الصخرة ضربه فصدعها ، وبرقت منها برقة فى اتجاه بلاد اليمن ، ثم ضربها أخرى فذهبت برقة إلى بلاد الشام ، وفى الضربة الثالثة خرجت برقة فى اتجاه بلاد المشرق ، ثم تهشمت الصخرة حتى قال عمر ابن الخطاب: والذى بعثه بالحق كأنه (أى الحجر) سَهلَة (رمل) ، وكان كلما ضرب ضربة يتبعه سلمانُ ببصره فيبصر عند كل ضربه برقة ، فسأل سلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه من البرق ، فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: "أضاءت لى إحداها الحيرة وقصور كسرى ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ،

---

(١) المرجع السابق والصحيفة.

(٢) قصة سلمان رضى الله عنه معروفه ، ولكن مما تجدر الإشارة إليه هنا أنه كان صاحب فكرة حفر الخندق التى لم يعرفها المسلمون ولا العرب فى حروبهم من قبل ، وكان سلمان يعمل فى الخندق يومئذ عَمَلَ عشرة رجال ، حتى تنافس الناس فيه ، فقال المهاجرون: سلمان منا ، وقالت الأنصار: هو منا ونحن أحق به ، فَبَلَغَ النبى صلى الله عليه وسلم قولَهم فقال: "سلمان منا أهل البيت" فما أجمل هذا الدين الذى يسوى بين الجميع عبيداً وأحراراً ، عربا وعجماً ، بيضاً وسودا.

وأضاءت لى الثانية القصور الحُمر من أرض الشام والروم ، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها ، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء ، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا" فاستبشر المسلمون(١) لما رأوا من أمارات النصر وسيادة الدين وظهور الحق على الباطل.

أما المنافقون من أهل المدينة فقد هالهم أمر هذه الرؤيا وهاجت فى صدورهم القلوب لما رأوا أن الله فى كل حين يُظهر لأهل دينه من أمارات النصر والظهور على من دونهم وتعاقب الأيام لهم ، وأرادوا أن يُغطُّوا على أمر هذه البشارة بالتعجب منها ، والإنكار لإمكان حدوثها ، وأخذوا يقولون للمسلمين: ألا تعجبون ؟ يعدكم (أى محمد صلى الله عليه وسلم) الباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا.

وقبل أن يرد المسلمون المملوءة قلوبهم بنور الإيمان على المنافقين، أنزل الله عزوجل من عنده الرد عليهم لُيثبت للمسلمين كل ما أنبأهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وَيُثَبِّتَ حُجتهم أمام أعدائهم من أهل النفاق ، وفى ذات الوقت يُخْزِى أهل النفاق ويحبس أنفاسهم فى صدورهم ، إذْ هم يحاولون تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم فما عساهم يقولون فيما يتنزل من عند الله سبحانه ؟! .

---

(١) ابن الأثير: أبو الحسن على أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ): الكامل فى التاريخ ج٢ ص١٢٣ ، طبعة بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م ، مغازى الواقدى: ج٢ ص٤٥٠ "بتصرف" (تحقيق:د/مارسدن جونس. بيروت د.ت).

ويمكننا الآن أن نتطرق إلى ادعاءات المستشرقين وافتراءاتهم على الفتوحات الإسلامية ، إذ يبدأون التهجم عليها من سِلْسلة أهدافها ، ويمكن حصر هذه الافتراءات – من جانبنا – فى أربع:

الفرية الأولى: إدعاء النظرية الغربية (المستشرقون ومن والاهم) أن سبب الفتوحات الإسلامية الرئيسى كان سياسياً بحتاً ، ويعللون لذلك بعدة ملحوظات:

أولها: أن العرب الذين كانوا شُجعاناً فى الجاهلية مُتَمرسين على الجَلَدِ والقتال حينما انضووا تحت لواء الإسلام ، جعل منهم قوة ضاربة ، ووحد مشاربهم ، وجمعهم بعد اختلاف وتمزق ، فراحوا يوجهون قوتهم هذه ضد جيرانهم الأقوياء الذين لم يستطيعوا مصاولتهم من قبل.

الملحوظة الثانية: رأى أصحاب هذه النظرية أنه فى زمان حروب الردة تحولت الدولة الإسلامية كلها إلى معسكر كبير للجيش ، إذ كان من الضرورى إخضاع كل عرب الجزيرة العربية لسيطرة المدينة المنورة ، مما يستلزم إجراءً عسكرياً قوياً وعلى نطاق واسع حتى يمكن تحقيق هذا الهدف.

الملحوظة الثالثة: زعم هؤلاء أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه بعد قتاله للمرتدين وإحرازه النصر عليهم ، عمد إلى تجييش الجيوش وَدَفْعها إلى ميادين القتال الخارجية التى وسَّع جَبَهَاتها كى يشغل المسلمين بذلك عن التفكير فى كيفية أيلولة الخلافة إليه ، ويمنع تكون جبهات معارضة لساسته ، طالما انشغل المسلمون بحروب لاتنقطع !.

ونرد على هؤلاء الطاعنين والمفترين بأن ملاحظاتهم الثلاث التى بنوا عليها وجهتهم تتعرى تماماً من الحقيقة إذا مارجعنا إلى الظروف الحقيقية

والحتميات الواقعية لكل هذه الأحداث. فإذا مانظرنا إلى الملحوظة الأولى وجدنا واقعها يغاير تماماً تماماً ما أراد المغرضون ؛ فالعرب بعد أن أعزهم الله بالإسلام وانشرحت له صدورهم ، لم يبخلوا فى سبيله بكل غال أو نفيس ، حتى أرواحهم حملوها على أكفهم زهيدة فى سبيل الله وفى سبيل تبليغ رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأبدوا فى هذا المضمار من أعمال الفداء والبذل والإقدام ما جعل الأنظار كلها تلتفت إليهم فى عجب وإكبار ، أو حسدٍ بغيض أيضاً وقع من جانب الشعوب العظمى آنذاك (الفرس والروم) والذين أكلت الحروب منهم كل فج وغض ، دونما هدف ينشدونه ، أو غاية مثلى يبغونها ، وها هو سيديو بعد ما سجل بطولات العرب المسلمين الفذة ينعى على قومه تلك العداوة البغيضة التى سادتهم وقسمتهم إلى أحزاب دينية متعادية بسبب اختلاف أدياتها ، كما ينعى عليهم تعودهم أن يستأمنوا على ممالكهم لحمايتها غرباء مؤجرين (مرتزقة) لايعرفون قوة عزائم الأمة الإسلامية (١).

كما ينبهر "ول. ديورانت" بهذه الحماسة الدينية عند المسلمين فيقول: "ولما سار الفتح فى طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها ، فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبى المتحمسين يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد بعثوا فى قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت فى الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة"(٢).

وكما فعل سيديو ، فإن "ول.ديورانت" قد نعى على قومه فساد أخلاقهم وإفساد المبادىء الدينية بينهم ، فقال فى مرارة وهو لم ينس صورة المجاهدين المسلمين البواسل وبطولاتهم النادرة: "وهناك فوق ذلك عوامل

---

(١) ينظر كتاب: خلاصة تاريخ العرب . ص٧٢ .

(٢) قصة الحضارة ج١٣ ص٧٢.

أخلاقية لها أيضاً شأن فى هذه الفتوح. ذلكأن المبادىء الأخلاقية لها أيضاً شأن فى هذه الفتوح. ذلك أن المبادىء الأخلاقية المسيحية والرهبنة قد أضعفتا فى بلاد الشرق الأدنى(١) ذلك الاستعداد للقتال الذى كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام ولقد كانت جيوش العرب خيراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة ، يألفون المشاق ، وينالون جزاءهم من الفيى ، لقد كان فى وسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية ، ويعتمدون على النصر فى الحصول على طعامهم ، ولكنهم لم يكونوا فى حروبهم همجاً متوحشين"(٢).

وواضح من قول "ديورانت" ومن على شاكلته الدافع الحقيقى للحرب عند المسلمين وغايتهم المنشودة ، ونُبل أخلاقهم وصفاتهم فى حُروبهم ، بما يفوق ما كانت تحلمُ به شعوب الفرس والروم فلم يستطيعوه واستطاعه العرب بجسارة. وواضح كذلك أن هذه النصوص التى يثبتها هؤلاء المستشرقون سهواً هى التى تَرُدُّ على أكاذيبهم وأباطيلهم فى الادعاء على الإسلام والمسلمين ، إذ تتسرب الحقيقة كالضياء الرفيع فى دجى الليل البهيم فلا يدرون إلا وهى مسطورة بأيديهم ، محفورة فى عقولهم تنغص أهوائهم وتزرى بآرائهم ومراميهم ، والحق ما نطقت به الأعداء.

وأما فيما يتعلق بحروب الردة (الملحوظة الثانية)(٣) فلم يكن الباعث إليها فى الحقيقة إلا ارتداد هؤلاء الناس عن الإسلام بعد أن أقروا به ، وادعى بعض العرب النبوة ، وامتنع البعض من أداء الزكاة لسوء فهمهم لمقصودها ،

---

(١) يقصد ببلاد الشرق الأدنى: الشام وفلسطين ومصر ، حيث كانت ولايات تابعة للرومان آنذاك.

(٢) ول.ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ ص٧٢.

(٣) سبقت الإشارة إليها فى ص٩٢.

فأصبحت حرب هؤلاء وأولئك أمراً ضرورياً ، لايجوز مُهَادَنَتُهم فى شيىء من ذلك ، وهذا ما اتخذته سياسة الصديق رضى الله عنه حينما رفض التفاوض معهم أو التمهل لهم ، لينفذ بذلك منهج النبى صلى الله عليه وسلم الذى قال: "أُمِرْت أن أُقاتِلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم"(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا"(٢).

إذن فحرب هؤلاء ضرورة حتمية لاتحتمل التأخير أو التوانى كيما يعودوا إلى ساحة الإيمان ويباشروا ماتعطل من أركان الدين ، وكون أن المسلمين قد أعدوا لهذا الأمر عدته ، وألف الصديق رضى الله عنه أحد عشر جيشاً لذلك ، مما يصفه ، الحاقدون بأن الدولة كلها قد تحولت إلى معسكر حربى ! فإن هذا لايدل على أنها صارت دولة عسكرية أو استعمارية ، وماكان ذاك إلا تفادى أمر لو لم يُتَدَارك لكان شراً مستطيراً على سائر العرب ، ولولا ردة العرب لما كان المسلمون فى حاجة إلى بذل كل هذا الجهد الحربى فى الداخل ، وليمموا وجوههم إلى الأمم المجاورة لهم يحملون إليهم الدعوة ويوقفهم على سمو مبادئها.

ثم إذا ما انتهت حروب الدولة للمرتدين واستقرت الأمور فإن قضية التبليغ وإيصال الرسالة إلى من لم تصلهم بعد مهمة حتمية كذلك ، وليس السيف شرط فيها ، بل السيف فى آخر مقام.

وأمـــا ملاحظتهم الثالثة وادعائهم عزم أبى بكر رضى الله عنه على أن

---

(١) صحيح مسلم. ج١ ص٢٠٦.

(٢) صحيح مسلم ج١ ص١٧٧.

يشغل المسلمين بالحـروب ، وإبعادهم عن التفكير السياسى ، فهــذه الفـرية – كذلك – لاينهض لها دليل أو تقوى لها حجة ، وهم ما بنوا رأيهم فيها إلا بناء على ما أفرزته قرائحهم العقيمة ، وأحقادهم الدفينة حول مسألة ولاية أمر المسلمين بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم؛ إذ تركوا كل إيجابيات الموقف، وماتمثل فيه من أروع ضروب الحرية السياسية والنظريات الديمقراطية التى لمْ ولنْ يَصِلوُا إلى مستواها الرفيع. وأزعجهم ذلك الإجماع التام على اختيار الخليفة الأول بنسبة مائة فى المائة ، بعد أن شهدت الجلسة كافة أوجه المحاورات والمناورات(١). فنحى الطاعنون كل هذه الإيجابيات جانباً ، وراحوا يتخيلون فتنة لم تشتعل نارها ، وصراعاً لم تظهر له أمارة ، حيث ادعوا أن أمر الإمامة كان مجالاً للتصارع ، وأنه قد طلبها غير أبى بكر كثيرون ، ولكنه بحيله ومساعى بعض أنصاره قد احتواها لنفسه ، فلما حازها عمد إلى شغل المسلمين بعملية الجهاد فى الفتوحات لئلا يتيح لهم مجالاً للمناقشات السياسية! وكل ذلك باطل لم يقع شيىء منه ولا كان ، ولم يقصد إليه من قريب أو بعيد ، وماكانت خطة الفتوحات التى ارتأها أبو بكر رضى الله عنه إلا تحقيقاً للإشارات التى وقعت للرسول صلى الله عليه وسلم أو كانت منه فى أثناء حياته.

أما الفرية الثانية: فهى ادعاؤهم أن الهدف الرئيسى للفتوحات كان سبباً اقتصادياً ، يهدف المسلمون من ورائه إلى جَنْى ثروات البلاد المفتوحة والإفادة من خصوبة أراضيها ، كى تعوض المسلمين (العرب) عن فَقْر بيئتهم الصحـــراوية المجدبة مستغلين فى ذلك إلفهم للحرب وحَمِيتهم التى أكسبهم

---

(١) ينظر فى هذا بحثنا عن "مؤتمر السقيفة والديمقـــراطية الحديثة" المنشور فى حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق عام ٩٣/٩٢ "المجلد الثانى" ص١٧٣.

الإسلام إياها!! .

ويدعمون هذا الزعم بحجة باطلة ؛ فيقرون أن الفتوحات الإسلامية ما كانت إلا حلقة من سلسلة الهجرات السامية المغرقة فى القدم ، وبناء عليه فإنه بعد الإسلام قد حدثت زيادة كبيرة بين السكان العرب وبسرعة هائلة ، مما مثل بدوره عبئاً اقتصادياً ، وجعل معيشتهم تواجه صعوبات متنوعة ، وبسبب هذا اتخذت الهجرة العربية السامية الجديدة شكل الفتوحات.

ومن سُوء حظ أصحاب هذه النظرية المفتراه أن يَرُد عليهم واحد من بنى جنسهم وملتهم ، هو المؤرخ "فرانسسكو جبرائيل" ، ويُبْطل هذه النظرية القائلة بوجود ضغط سكانى نتج عنه هجرة اقتصادية ؛ لأنه لايوجد إثبات يدل على الزيادة فى السكان منذ ذلك التاريخ وبعد مجيىء الإسلام ، ويعلل لرأيه هذا بأن العرب الفاتحين طوال فترات فتوحاتهم الطويلة لم يفرحوا أو يُسروا بالسكن فى المناطق الكثيرة السكان ، أو يفرحوا بالإقامة فى المناطق التى فتحوها ، وكانوا بعد الفتح يفضلون فى معظم الأحيان العودة إلى مناطقهم الصحراوية ، ثم إنه حتى زمان خلافة عمر رضى الله عنه ظلت سياسة الحكومة تقضى بألا يسمح للعرب بالإقامة فى البلاد المفتوحة (١). ونضيف إلى ما قاله جبرائيل: إنه من الثابت تاريخياً –وكما أقره أعداء الإسلام قبل أنصاره –أن الفتوحات الإسلامية لم تستغرق زمناً طويلاً ، فها هو "فان فلوتن" يَأْسَى لهذه الحقيقة ويقول: "وهناك فرق عظيم بين انتشار المسيحية وانتشار الإسلام ؛ فقد انتشرت المسيحية انتشاراً وئيداً وسط وابل من الأضطهادات والآلام ، كما يدل على ذلك ما أُثــر عن عيسى عليه السلام من تلك الكلمات:

---

(١) محمد ياسين مظهر (الدكتور): الهجمات المـــغرضة على التاريخ الإسلامى ص١١٥ ، ترجمة د/سمير عبد الحميد ابراهيم . مطبوعات رابطة الجامعات الإسلامية (د.ت).

(إن مملكتى ليست من هذا العالم) ...أما الإسلام ، فكان على العكس من ذلك ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن أصبح له نفوذ روحى وزمنى عظيم بعد سنين قلائل من الجهاد....."(١).

فإذا كانت الفتوحات الإسلامية لم تستغرق زمناً طويلاً ، حيث دانت كل جزيرة العرب للإسلام فى بضع سنوات أو تزيد قليلاً ، وفُتحت بلاد فارس والشام ومصر فى بضع سنوات أخرى ، ثم لم يمض قرن من الزمان حتى فتحت معظم دول الأرض فى جميع قاراتها. فأين ذلك الزمن الذى يجعل المسلمين يتزاحمون فى أرضهم ويتكاثرون لدرجة أنهم يخرجون فى هذه الهجرات السامية المتدافقة ؟ إنه افتراض ناقص لايقوم له دليل، فما هو إلا نوع من التشويش والتشويه لحقائق التاريخ الجلية !.

ثم نلفت نظر هؤلاء المدعون على الإسلام إلى الآية القرآنية التى أباحت للمسلمين الجهاد لأول مرة ، هل يرون فيها ما يبرر لغرضهم أو يدعم فريتهم من دليل ؟ وهى قول الحق سبحانه: "أُذِنَ للذِينَ يُقَاتَلُون بأنهُمْ ظُلمُوا وإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لقدير* الذين أُخْرِجُوا من دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حقّ إلا أن يقولوا رَبُّنَا الله..."(٢) فالناسُ الذين جُوِّز للمسلمين قتالهم فى هذه الآية لم يذكر من أسباب جواز قتالهم أنهم يمتلكون أرضاً خصبة ، أو لديهم تجارة وأسواق ورقيق ، أو لأنهم يتبعون ديناً آخر ، بل يتضح تماماً أن جرمهم هو أنهم يظلمون الناس ويخرجونهم من ديارهم بغير حق ، وهم متعصبون لدرجة

---

(١) فان فلوتن: السيادة العربية فى عهد بنى أمية ، ص٥ ، ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكى ابراهيم (طبعة أولى) القاهرة ١٩٣٤م.

(٢) الآيتان: ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج.

أنهم يتأذون وتصيبهم المصائب لأن هؤلاء المظلومين يقولون: ربنـا اللـه ! ولـم يصدر الحكم بقتـال مثـل هـؤلاء النـاس لمجـرد الدفـاع ؛ بـل قصد أيضـاً معاونـة المظلومين ومناصرتهم ، وتـم التـأكيد علـى ضـرورة تخليـص المستضعفين مـن الناس من مخالب الظالمين(١).

ونقطة أخرى مهمة فى هذا الشأن ؛ حيث لاحظ أهل الغرب جميعاً ماكـان عليـه حال الجُنْد الإسلامى فى القتال من استبسال وإقدام نادرين (٢) ، حيث كان المسلم لايرى فرقاً بين النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله ، بل كان يقوى عنده الجـانب الأخير فى كثير مـن الأحيـان ، كمـا كـان يتـم فـى أكـثر اللقـاءات الحربيـة نـزول القائِدَيْن : المسلم ونظيره يلقون بأنفسهم فـى حومـات الوغـى غير عـابئين بمـا ورائهم من مال أو ممتلكـات أو أهـل وولـد لا يبغـون أو يؤملـون مـن وراء ذلـك كسباً مادياً ؟ إذ لايسعى لهذا الكسب إلا من يدخر حياته للبقـاء بجـواره والتمتـع به ، وإذا كان القائد أول من يخرج للمبارزة ، فـإن هـذا ينفـى أن تكـون العمليـة الحربيـة تتـم لصـالح القـادة أو القيـادة ؛ فمـن يحـرص علـى المـوت لايشـغله مايتحقق من الثروة بعد النصر ، فهو لايضمنه ، "فإن الإنسان لايستهلك فى أمـر ويعرض حياته للخطر من أجله إلا إذا كان من قبيل الدين"(٣).

وإذا كان من المُهم بيان نظرة العرب المسلمين إلى خصب الأرض المفتوحة،

---

(١) أبو الأعلى المودودى: شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية . ص٢٨.

(٢) لـــم يَخْـــلُ كتاب من كُتب الغرب فى تاريخ الإسلام من هذه الثوابت ، بل لقد أذهل الكثير منهم ما قـــرأوه وعلموه عن هذه الشجاعة النادرة التى سجلها المسلمـــون فى كل حروبهم.

(٣) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ج١ ص٦٥.

فمـــا كانت تلك النظرة إلا لتحسب ظروف المعركة وحالة الحرب ؛ حيث تفيد الفاتح طبيعـة أرض المعركـة مـن حيث مقوماتهـا وإمكاناتهـا ، فيمـا يمـد الجنـد بالطعام والدواب بالعلف ، وهى نظرة وقتية ، لا يهدف من ورائها إلى نقل تلـك الثروات ، بدليل أن كان المسلمون يتركون أهل البلاد على ما كـانوا عليـه قبـل الفتـح(١) ، يزرعـون ويتـاجرون لا يتعرضـون لهـم فـى شـيىء مـن دينهـم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم ، ومـن أسـلم منهـم أدى الصدقة ، ومن بقى على دينه أدى الجزية التى تقل كثيراً عما كـانت تجبيـه منـه الحكومـات السـابقة بطريـق القهـر والعسـف(٢) وحتـى الجزيـة لـم يفرضهـا المسلمون إلا على الرجال المقاتلين أو من يطيقون الحرب فقط ، وأُعْفِـــى منها الشـيوخ والنسـاء والصبيـان ، فهـذا أبْلَـغ فـى عَدمِ قَصْد المسـلمين إلـى عِظَـمِ الجباية، خلاف ماكان يحدث من قبل ؛ إذ كانت الجزية تعرف "بضريبـة الـرأس"

---

(١) المرجع السابق ص٧٤ ، سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص٧٢.

(٢) يتجنى "فـان فلـوتن" فى كتابـه: "السيادة العـــربية فى عهد بنى أمية" كثيراً عـلى المسلمين فى هذا الصدد ، ويُحــــاول إظهارهم دائماً بمظهر الغزاة الجبارين الذين يرثون الأرض من أصحابها وهم أحياء ، ويجعلـون الملكية لهم والعمل من شـــأن الأهلين ، ومن ضمن عباراته: "لم يكن الغرض مـن الفتوحات الإسلامية على هـــذه الصورة هو إدماج شعب فى شعب ، أو العمل على نشر دعوة دينية معينة ، وإنمـــا هو احتلال بقوة السيف" وهكذا لايخلو كتابه بين الحين والحين من التصريح بمثـــل هذه العبارة التى لاتنبنى على دليل أو فهم صحيح ، ولا أدرى السبب الـذى مـــن أجله يثنى مترجم الكتاب عليه ؛ فهو لم يوضح سر هذا الثناء ، ألالأنه أعطـــى الفرصة للرد على هذه الأغاليط المكذوبة ؟ وهذا مالم يظهر فى الترجمة فهـــى نصية ، أم لأنه أعجب بالكتاب فعلاً لأسباب لا أُدْرِكُها؟ وعلى كل حال فإنى أحيـــل المؤلف إلى قليل من كثير من كتب إخوانه فى الجنس والملة الذين نقـــــدوا الفتوحات الإسلامية بشيىء من الحياد ، منهم: سيديو فى كتابيه: "تاريخ العـــرب =

وتجبى من كل حى بدون تفريق ، وأيضاً فإن الإسلام قد أسقط الجزية عَمَّن لايقدر عليها ، وعن الرهبان والقساوسة ، وكل من لايعمل عملاً منتجاً ، مما يؤكد على أنها فى الإسلام ما كانت إلا عِوضاً عن الحرب عن هؤلاء المستأمنين والدفاع عنهم ، ولم تكن بقصد الاكتناز أو وفرة الجبايات لبيت المال.

وفى موضوع الجزية يطرح "فيليب حتى" تَصَوراً خاطئاً من عندياته ، فيقول: إن الجزية والخراج كانا أكثر محبة لدى المسلمين الفاتحين من غيرهما، ويعزز هذا الادعاء بقوله: ....وبدلاً من الحماس الدينى فإن الضرورات الاقتصادية قد تفوقت لدى العرب على الحرب ، فمشكلات الصحراء كانت سبباً فى هجومهم على الهلال الخصيب ، حتى ينالوا الراحة والدعة ، ومن الممكن أن تكون فكرة الذهاب إلى الجنة قد ظلت تداعب قلوب بعض الناس، إلا أن الهدف الأساسى كان الثروة والحصول على الفوائد المادية.(١) وعلى هذا النسق ينقل "سيرتوماس أرنولد" عن "كيتانى" أن الروح التى دفعت جحافل العرب التى تدفقت على حدود دولتى الفرس والروم لم تكن روح تحمس وغيره ترمى إلى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام ، بل كان الأمر على العكس من ذلك ، "فإن البواعث الدينية -كما يظهر- لم تكن قد تسربت إلا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية ، ويعتبر توسع الجنس العربى على أصَحِّ تقدير هجرة جماعية نشيطة قوية دفعها الجوع والحرمان

= العام" و "خلاصة تاريخ العرب" ، و: "ول.ديوارنت فى مطوله: "قصة الحضارة ج١٣" وغوستاف لوبون فى مصنفه: "حضارة العرب"إلخ.

(١) محمد ياسين مظهر: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى ص١١٤.

إلى أن تهجر صحاريها المجدبة ، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً"(١).

وأعتقد أن كُلا من "فيليب حتى" و "كيتانى" وغيرهما ممن نحا نحوهما يدفعهم إلى هذا القول ذلك الحقد البغيض الذى اعتمل فى نفوسهم وفى نفوس الكثيرين ممن هالهم سرعة قيام الدولة الإسلامية وتعاظم فتوحاتها فى زمن يسير ، ويساير هذا الاتجاه -كذلك-"فان فلوتن" الذى تتأرجح أراؤه بين إقرار الواقع (سهواً) ، وبين التجنى وقراءة الأحداث على هواه تارة أخرى ، فيقول: "وكانت تمنح الشعوب التى تفتح أبوابها للمسلمين حرية التدين وملكية الأرض، كما كانت لاتطالب إلا بالجزية ، وهى الضريبة التى كانت تدفعها الشعوب المخالفة للمسلمين نظير حمايتهم لها ، بينما كان للمسلمين الحق فى تخريب البلاد التى كانوا يفتحونها عنوة ، وقتل رجالها ، وسبى نسائها ، على أن المسلمين كانوا يفضلون ترك الأرض لأهل تلك البلاد يستغلونها لمصلحة الفاتحين"(٢) . ويعزز وجهته هذه بما ينقله عن "فون كويمر" الذى يقول: (كان أهل الولايات المغلوبة يحرثون ويبذرون والمسلمون يحصدون ، ولا عمل لهم سوى الحرب وشن الغارات)(٣).

ولعل سرعة انتشار الإسلام واتساع رقعته هى التى دفعت إلى هذا الخلط عند هؤلاء بين ما يصاحب العمليات الحربية من قتل للمحاربين وسبى لنسائهم، وبين إقرار سياسة الحياة العامة فى تلك البلاد بعد انتهاء

---

(١) سيرتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٦٤.

(٢) فان فلوتن: السيادة العربية فى عهد بنى أمية ص١٥.

(٣) المرجع السابق ص١٩.

القتال ، كما دعاهم إلى هذا الخلط أيضاً أن لم تتحقق لأصحاب الديانات السابقة هذه الفرصة لَبثٍّ نفوذهم وترسيخ معتقداتهم بين كثير من الشعوب ، على الرغم من السعى لهذا ومحاولتِه قُروناً طويلة ولكن دون جدوى.

وعلى الرغم من أن كثيرين من المؤرخين الغربيين يْرمُون إلى إثبات هذه الغاية المادية (الاقتصادية) فى الفتوحات الإسلامية لنفس هذه الأسباب والدوافع السالفة الذكر ، إلا أنه يمكننا أن نستخرج من بين طوايا كلامهم وكلام البعض ممن مالوا إلى الأنصاف فى تقرير الحق ما يثبت للوجهة الإسلامية أنْ لَمْ يكن الدافع الاقتصادى أسياسياً فى عملية الفتوحات ، وإن تحقق بحكم الواقع وبدون قصد ، والشواهد فى ذلك كثيرة وفوق الحصر.

لماذا يتهجمون على الفتوحات الإسلامية ؟.

فوق ماسبق ، يمكن أن نُثبت بعض الحقائق التى جعلت الغربيين يحملون هذه الحملات الجائرة الشائنة على عملية الفتوحات الإسلامية ودوافعها ، ولا نُجوز لأنفسنا أن نطالب هؤلاء أو نتوقع منهم أن يكونوا منصفين محايدين فى سرد أحداث التاريخ وثبتها ؛ إذْ لم تتأصل فيهم ملكة العدل التى ينعم بها كتاب المسليمن ، والتى تنبع من منهج العدل الإسلامى العام ، كما لم تَتَأصل فيهم رُوح الإسلام حتى يُجلو غوامض تاريخه ، ويدققوا فى فهم أحداثه ، ومن ثَمَّ يمكننا أن نضع أيدينا على عاملين رئيسيين يدفعان كل من تجنى على الإسلام وتاريخ حركته النشطة.

العامل الأول: نقمة الغرب على العرب اتحادهم بالإسلام بعد شتات ، وقوتهم بعد ضعف ، وظهور الكيان العربى المتين لأول مرة فى هذا الزمان ، بعد أن كان العرب بدواً مشتتين فى ربوع صحاريهم ، وكانت من حولهم دولتا الفرس والروم اللتان طاولتا الزمان سطوة وملكاً وقوة ، حتى كان العرب بجوارهم هوامش فى حواشى الظل ، فلما قوى العرب بالإسلام، وصارت لهم به دولة فتية ، لم يستطع هؤلاء نسيان هذا الواقع القديم للعرب ، وبدلاً من أن يهتموا بأسباب النمو والقوة والتوحيد لهذا الجنس، راحوا يؤكدون على عوامل ضعفه فى الأيام الخالية ، وينبشون عن كل سقطات العرب قبل الإسلام ، واستكثروا عليهم ما مَنَّ اللهُ به عليهم من نعمة الإسلام.

وماذاك فى حد ذاته إلا تتمة لسلسلة الحسد البغيض والحقد الأعمى التى تبدأ من حيث لم يكن الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم من اليهود أو النصارى ، فلم يستطع هؤلاء وأولئك أن يُخْفُوا أحقادهم التى دفعتهم

دفعاً إلى هذا التهجم المفضوح ، والتقوّل الزائف ، وإبداء ما تخبئه طواياهم ، وهاهو "فان فلوتن" يُصَرح بأن المسألة لم تكن دين انتشر وبسط نفوذه وحسب على بلاد سورية (الشام) وجزء عظيم من مملكة فارس القديمة ، فقد كان هناك أمرٌ آخر ، ذلك أن شعباً غريباً غير مثقف قد استطاع بماله من قوة وبأس أن ينفذ إلى الولايات المسيحية ، ويُوطد سلطانه بين أنصار دين زردشت في بلاد فارس (١).

وما كل ذلك منهم بُمستغرب مالم يهتدوا للإسلام وينعموا بأنواره ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وسيظل هؤلاء أمام حقائق تاريخ الإسلام كما قال الشاعر العربي:

كناطحِ صخرة يوماً ليُوهنها فلم يُضرْها وأوهى قَرْنه الصخر

العامل الثاني: نقمتهم على الإسلام والمسلمين سرعة تكوين الدولة وانتشار الإسلام في أرجاء الأرض . إذْ قد أفزعتهم تلك الحركة المنظمة السريعة للفتح الإسلامي ، وهم الذين أفنوْا من أنفسهم أجيالاً ، ومن أعمارهم قروناً كيْما تعمُ دياناتهم وتتسع لها الآفاق ، فلم يقدروا حتى على أن يوسعوا لها في ذات الصدور والأنفس التي اعتنقها ، حتى صارت عقَائد بلا مُعتقدين ، وديانات بلا متدينين ، علا فوق كل منها ما سادهم من التناحر والتطاحن المذهبي الذي آل إلى حروب وصراعات وتصفيات بشرية بين أتباع كل من هذه الأحزاب التي لم تستطع أن تَتَوَحد على دين واحدٍ ترتضيه !.

وعبارة "فان فلوتن" السابقة(٢) ماتزال عالقة بالذهن تنبض بهذا

---

(١) فان فلوتن: السيادة العربية في عهد بني أمية ص١٥.

(٢) في ص ١٢٣.

وتصرح به ، ثم هاهو "جورجى زيدان" يشير فى صراحة إلى أسباب تلك الوحدة ودوافع تلك القوة التى جعلت من العرب أقوى أمة ، فيقول: "أما الإتحاد بالإسلام فإنه ظاهر فى كل أعمالهم ، يشهد بذلك ما قدمناه من أمر التآلف والتآخى فى أول سنة للهجرة ، ويؤيده أن الإسلام عنوان التوحيد ، كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث ، ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء أو الأمُراء فى صدر الإسلام من الإشارة إلى تلك الوحدة ، وتذكير المسلمين بما كان عليه أباؤهم فى الجاهلية من التفرق والتشتت ، وما يدعوهم إليه الإسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة ، وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات فى اليوم للصلاة خلف الإمام أو من يقوم مقامه ، وفى ذلك من توطيد عُرى الاتحاد والإجماع على الطاعة مالا يخفى، ذكر البلاذرى أن أباسفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح – وهو لم يُسَلم بعد – رآهم قائمين للصلاة إذا ركع النبى ركعوا ، وإذا سجد سجدوا ، فقال: تالله مارأيت كاليوم طواعية قوم جاءوا من ههنا وههنا ، ولا فارس الكرام والروم ذات القرون"(١).

فملاحظة "جورجى زيدان" هذه عن الإتحاد بالإسلام كسبب من الأسباب التى جرأت العرب على الفتح ملاحظة صحيحة يؤكدها التاريخ ، ولكننا نراها -فى ذات الوقت- سبباً من أسباب تحامل الغربيين على عملية الفتح الإسلامى؛ لأن هذا "الاتحاد بالإسلام" قد أرّقهم كثيراً وأقَّضَ مضاجعهم لما رأوه من أمثلة نادرة تكاد تصل إلى حد الخيال فى أذهانهم ، لم يروها من قبل فى أمة ، ولا تحت لواء سابق ، فَهَالَهُم هذا الأمر ، وأخذوا ينقمون به على المسلمين .

وتبقى بعد كل هذا كلمة الفصل فى هذا الجانب ، وهى أن المسلمين لم

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ج١ ص٦٤ .

يندفعوا فى عملية الفتوحات الإسلامية إلا من أجل هدف واحد هو تبليغ الدعوة وإيصالها إلى كل الناس ، غيرها هادفين من وراء ذلك إلى مكاسب اقتصادية ، ولا مدفوعين بضغوط سياسية داخلية ، فانتقلوا من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح ، "حتى أصبحت الفتوح الإسلامية - التى كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية - أعظم الأعمال إثارة للدهشة فى التاريخ الحربى كله"(١).

مع احتفاظنا بفوارق جمة بين عملية الفتح الإسلامى وسائر عمليات الفتح التى سجلها التاريخ؛ فإن فتوحات الإسكندر المقدومى وجنكيزخان وهنى بال ونابيلون وغيرهم تَصغر وتتضاءل فى أهمية أهدافها ومقاصدِها بلْ ونتائجها عنها فى الفتوحات الإسلامية، "ولا شك أن فاتحى العالم هؤلاء قد سيطروا على العالم فى معظمه، إلا أن سيطرتهم كانت مجرد سيطرة وتحكم فى شعوب العالم المفتوحة، لا امتلاكاً للعالم، وهناك فرق بين السيطرة والإمتلاك ؛ لقد أصابوا قلوب الناس بسيوفهم، ثم لم يضمدوا جراحها ، لكن الفاتحين المسلمين حرروا الإنسانية من عبودية الإنسان، ورفعوا عن كاهل الناس الثقل الاقتصادى، وأعطوا البشرية الحرية الدينية، وأقاموا حكم القانون،وبعد الفتوحات أقاموا الأمن والنظام ، وعملوا على بناء ورقى البلاد المفتوحة ، كما أصلحوا جميع جوانب الحياة وطوروها.."(٢).

وهـــــذا مايشير إليه الكونت "هنرى دى كاسترى" فيقول: "لجأت شيعة (أى أصحاب) محمد صلى الله عليه وسلم إلى الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه ، فنشـــر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق إلى

---

(١) ول-ديوارنت: قصة الحضارة ج١٣ ص٧٣.

(٢) محمد ياسين مظهر: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى ص١١٧.

الشام وشمال إفريقية وعبرت البحار، إلا أنهم مع ذلك لم يتركوا أثراً للظلم والتعسف"(١).

(١) نظـرة المـؤرخين الغربيين إلى التاريخ الإسلامي ليست واحدة ؛ فمنهم من يراه كمـا هـو فيقـوم بالدراسة المنهجية المحايدة ، ويُقارن إيجابياته بما سبق من سلبيـات العصور الغابرة ، كما هو الحال عند "كاسترى" و "جوستاف لوبون" وغيرهما ممـن حذوا حذوهما، ومنهم من يرى العكس ، فتعميه الحقائق وتغشى عينيه غشاوة الحقـد فـيرى إيجابيات التاريخ الإسلامي مثالب طالما هي منسوبة إلى الإسلام أو نابعـة منه ، ويأخذ هذا الفريق على عاتقه مهمة تشويه الحقائق ، علّه يستطيع مع تقـادم الزمان أن يعطى صفة مغايرة لواقع الأحداث ترضى نَهَمه هو وأمثاله ، وفريـق ثالث يتلوى بين الأمرين ؛ يكيد للإسلام وتاريخه تارة ، أو يجد نفسه منساقاً لتقريـر الواقع الحق تارة أخرى سواء عمد إلى ذلك أم وقع سهوا منه . وكُلهم فى هـذا لا يروقهم أن ينتقل العالم بأسره من هاوية التردى والضلال والفسـاد الـدينـى والاجتماعى والبيئى إلى قمة التعقل والتدين والتطور الاجتماعى والإنسانى على يـد نبى الإسلام والمسلمين ، بل يندبون حظهم أنْ لم تَكُن هذه الإصلاحات علـى يـد غـير المسلميـن ، وهكـذا قيـض الله عزوجل أقلام وألسنة بعض هؤلاء الغربيين لإثبـات الحق والرد على مطاعن بنى جلدتهم المغرضين. وهى سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

* الإسلام والفتح السِّلمى *

الهجرة من مكة إلى يثرب (فُتِحَتْ يثْرِب بِالْقُرْآن)

بعد أن يئس النبى صلى الله عليه وسلم من قومه بمكة ، حيث ازداد اضطهادهم له ولدعوته ، وأذوه وحاصروه ومن معه حصاراً اقتصادياً واجتماعياً وبيئياً ، عَمِدِ إلى الخروج بدعوته من بين أظهرهم ، فأمر جماعة من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، حيث لقوا ترحيباً من ملكها النجاشى ، ثم عمد هو إلى الخروج إلى الطائف ودعوة أهلها ، لكنهم لم يحسنوا استقباله ، وردوه على عقبه ، حتى لم يعد دخوله مكة مُمكناً ولا ميْسوراً.

وإلى هنا فقد كان يبغى لهؤلاء وأولئك أن يفهموا أن هذا النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصد بدعوته أياً من مطالب الدنيا ؛ وإلا لما اضطر هو ومن أمن معه إلى هذا الشتات والتفرق ، ولكن أنى لهم أن يدركوا ذلك ، وقد صمت فيهم الآذان ، وعميت الأعين عن الهدى ، وهاهو صلى الله عليه وسلم يرجع من الطائف إلى مكة محزوناً لالشيىء إلا لعدم تمكنه من تبليغ رسالة ربه.

ويتحرج موقف النبى صلى الله عليه وسلم فى عودته إلى مكة ؛ فهو لايستطيع دخولها إلا بجوار ، وليس له فيها إلا بعض المستضعفين ممن آمن بدعوته ، وقبل أن يدخلها يمر به رجل من أهلها فيقول له: "هل أنت مبلغ عنى رسالة أرسلك بها ؟" فقال الرجل: نعم ، قال: "إئت الأخنس بن شريق فقل له: يقول لك محمد: هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى؟" فأتاه ، فقال ذلك ، فقال الأخنس: إن الحليف لايجير على الصريح ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال: "تعود؟" قال: نعم ، قال: "إئت سهيل عمرو فقل له: إن محمداً يقول لك: هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى؟" فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال: إن بنى عامر بن لؤى لاتجير على بنى كعب ، فرجع فأخبره النبى صلى الله

عليه وسلم ، فقال: "تعود ؟" قال: نعم ، قال: "إئت المطعم بن عدى فقل لـه: إن محمداً يقول لك: هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربـى؟" فقـال المطعـم: نعـم ، فليدخل ، فرجع إليه الرجل فأخبره ، وأصبح المطعم بن عدى فلبس سلاحه هـو وبنوه وبنو أخيه(١) ، فدخلوا المسجد ، فلما رآه أبو جهل قال: أمُجيرٌ أم متـابع؟ قال: بلْ مُجير ، فقال أبو جهل: قـد أجَرْنـا مـن أجَـرْتَ ، فدخـل النبـى صلـى اللـه عليه وسلم مكة وأقام بها ، فدخل يوما المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة ، فلما رآه أبو جهـل قـال: هـذا نبيكـم يـابنى عبد منـاف ؟ فقـال عتبـة بـن ربيعـة: ومانتكر أن يكون منا نبى أو ملك ! فأخبر بذلك النبى صلـى اللـه عليـه وسلم - أو سمعه - فآتاهم فقال: أمـا أنـت ياعتبـة بـن ربيعـة فواللـه مـا حَمَيْت للـه ولا رسوله ، ولكن حَمَيْت لأنفك ، وأما أنت ياأبا جهل بن هشام، فوالله لا عليك غير كبير من الدهر حتى تضحـك قليـلا وتبكـى كثيراً ، وأمـا أنتـم يامعشـر المـلأ مـن قريش ، فوالله لايأتى عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون (٢).

هذه الرواية التى أثبتها الطبرى فى دخول النبى صلى الله عليـه وسـلم مكـة ، تظهر إلى أى مدى بلغ الظلم والعدوان من عـرب مكـة ومـا حولهـا لرسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم ومـن آمـن معـه ، وتشـير إلـى أن مكـة لـم تَعُـد تصلـح مستقـراً لهم ، وأن الحال تقتضى من النبى صلى الله عليه وسلم البحـث عـن بـدائل أخـرى لهـذه القـبائل الـعربية النافرة من الدعوة والداعى.

---

(١) ابن القيم: شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشـقى (ت٧٥١هـ) زاد المعـاد فى هدى خير العباد ج٣ ص٣٣ ، تحقيق وتعليق: شعيـب الأرنـؤوط وعبد القادر الأرنؤوط (طبعة خامسة عشر) بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص٣٤٧ ، ٣٤٨ .

ومن ثم فقد يَمَّم النبى صلى الله عليه وسلم وجهه تلقاء قبائل العرب الأخرى التى تفد إلى مكة فى الموسم(الحج)، وأخذ يعرض نفسه عليها، ويتتبع الحجاج فى منازلهم،عله يجد فيهم من يستمع إليه، فيروى ربيعة بن عباد من بنى الديل -وكان جاهلياً(١)- فى ذلك قوله: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول:" يا بنى فلان. إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى ، حتى أبين عن الله ما بعثنى به"، قال ربيعة بن عباد: وكان خلف النبى صلى الله عليه وسلم رجل أحول وضيئ له غديرتان(٢)، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه، قال الرجل: يا بنى فلان. إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاؤكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له، قال ربيعة: فقلت لأبى: يا أبت مَنْ هذا الرجل الذى يتبعه يرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمُّه عبد العزى أبولهب بن عبد المطلب(٣).

ثم عمد النبى صلى الله عليه وسلم إلى بعض القبائل فدخل عليهم بيُوتهم وعرض نفسه عليهم، فأبوا جميعاً(٤)، ولم تنشرح له صدور أهل مكة، ثم أراد الله عز وجل لدينه العزة ولنبيه الظهور، فهدى بعض من عرض

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد جـ٣ ص٤٣

(٢) الغديرة: الذؤابة من الشعر.

(٣) تاريخ الطبرى:جـ٢ ص٣٤٩ "بتصرف يسير".

(٤) المصدر السابق: ص٣٥٢ "بتصرف".

الخزرج أراد الله لهم الخير، لقيهم النبى صلى الله عليه وسلم فى العام الحادى عشر من البعثة عند العقبة فسألهم: من أنتم؟ فقالوا: نفر من الخزرج، قال: أمِنْ مَوَالى يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم بيثرب، واليهود أهل كتاب قرأوا فى توراتهم أخبار هذا النبى الخاتم وصفاته وزمانه وأرضه، فكان إذا وقع بين اليهود وعرب يثرب شقاق أو قتال قال لهم اليهود: إن نبياً قد أظلَّ زمانُه سيبعث وسنتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم! فلما كلمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الرهط من الخزرج ودعاهم إلى الإسلام نظر بعضهم إلى بعض وقالوا:" تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يَسْبِقُنكم إليه"، فأجابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دعوة الحق ونور الإيمان، ثم قالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم- فقد كانت بين الأوس والخزرج عداوة مستمرة ونفرة دائمة يزكيها اليهود كلما هدأت- فعسى أن يجمعهم الله بك، ثم أعلنوا فى نفس الجلسة أنهم سيكونون رسلاً إلى قومهم بما عرضه عليهم النبى صلى الله عليه وسلم قائلين: فسنقدم عليهم- أى فى يثرب- فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرف الرهط وواعدوا النبى صلى الله عليه وسلم اللقاء فى الموسم المقبل(١). وهكذا أراد الله لعرب يثرب خيرى الإسلام والائتلاف بعد الفرقة.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٠٩، توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٤٢٠.

بيعة العقبة الأولى: أثمرت جهود هؤلاء النفر الذين أسلموا من الخزرج فى نشر ضياء الحق بين إخوانهم، حتى فشا فيهم الإسلام، فلم تبق دار من دور عرب يثرب إلا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم(١). ولم يأت موسم العام التالى إلا وقد وافى النبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة اثنا عشر رجلاً من عرب يثرب، فبايعوه بيعة العقبة الأولى، ويروى أحداثها الصحابى الجليل عبادة بن الصامت ، وهو واحد من الأثنا عشر ، فيقول : "كنا اثنا عشر رجلاً ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فىٰ معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه "(٢). قال عبادة بن الصامت: فبايعناه على ذلك (٣).

ولما انتهى الموسم وَهَمَّ وفد الأنصار بالرحيل من مكة ، أرسل النبى صلى الله عليه وسلم معهم الصحابى الجليل مصعب بن عمير ، (وعبد الله بن أم

---

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٣٥٥ . وكَوْنُ الذين قدموا للحج اثنا عشر فقط لا يمنع؛ ذلك فقد يكون هؤلاء الوفد هم الذين يستطيعون النفقة دون غيرهم.

(٢) نصوص هذه البيعة هى ذاتها التى كانت فى بيعة النساء فى العام الثامن بعد فتح مكة ، وكلتاهما تخلو من الأمر بالجهاد ، ففى بيعة العقبة لم يكن الجهاد قد تقرر بعد ، وفى بيعة النساء لم يُبايعهن صلى الله عليه وسلم على الجهاد لعدم فرضيته عليهن.

(٣) صحيح مسلم ج١١ ص٢٢٢ ، ٢٢٣ "باب الحدود ، الشيخ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص٥٣.

مكتوم)(١) كى يقرئهم القرآن ، ويعلمهم أمور الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، فكان مصعب فى يثرب يُسمى: "المقرىء" ، وكان نازلاً على أسعد بن زرارة الذى أسلم مع الرهط الأول وقدم فى الوفد الثانى فى بيعة العقبة الأولى ، وأصبح مصعب بن عمير بهذا أول سفير فى الإسلام.

ومما يؤكد أن يثرب فُتحت بالقرآن ما كان من أمر سعد بن معاذ سيد الأوس وابن عمه أُسَيْد بن حضير ؛ إذ رأيا مصعبا وأسعد بن زرارة يجلسان فى بستان والناس ملتفون من حولهما وهما يدعوانهم إلى الإسلام ، فقال سعد لابن عمه: ألا تقوم هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفائنا لتزجرهما ؟ فقام لهما أسيد بحربته ، فلما رأه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه ، فلما وقف عليهما قال: ماجاء بكما تسفهان ضعفائنا ؟ اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ، فقال مصعب؟ أوَ تَجْلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ، ثم تلا عليه شيئاً من القرآن ، فاستحسن دين الإسلام ، وهداه الله له ، فتشهد ورجع إلى سعد فساله عما فعل فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً ، فغضب سعد وقام لهما متغيظاً ، ففعل معه مصعب كما فعل مع سابقه ، فهداه الله للإسلام ، ورجع إلى رجال بنى عبد الأشهل وهم بطن من الأوس فقال لهم: ماتعدوننى فيكم ؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا ، قال: كلام رجالكم ونساءكم على حرام حتى تسلموا ، فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه. وقد انتشر الإسلام فى دور يثرب حتى لم يكن

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد فى هدى خير العباد ج٣ ص٤٦ ، الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص٥٣.

بينهم حديث إلا أمر الإسلام(١).

هذا موقف واحد من مواقف عديدة شهدها تاريخ اليثربيين فى دخولهم الإسلام وميلهم إلى نور الحق ، وفى هذا الموقف الذى بين أيدينا يتبين أثر القرآن فى توجيه الناس إلى الحق والهدى ، وتتكسر أشد الحراب والرماح من تلقاء نفسها أمام هذا الهدى القرآنى الهادئ الذى لم يزد على كلمات يسيرات يوجهها مصعب بن عمير إلى كل من جاءه ، ثم يتبعها ببعض آيات الذكر الحكيم، فتتفتح لها القلوب وترتاح لها النفوس ، وتتهيأ الحراب والسيوف التى كانت مُشرَعة من قبل للدفاع عن هذه الدعوة الوضاءة وصاحبها النبى العربى الكريم صلى الله عليه وسلم.

بيعة العقبة الثانية: أثمرت جهود مصعب بن عمير فى مهمته التى كلفه بها النبى صلى الله عليه وسلم، وتزايدت أعداد الداخلين فى الإسلام من عرب يثرب، ولم يمض على مقامه فى يثرب سوى عام حتى وافى مكة هو ومن آمن من الأنصار ، وكانوا بضعاً وسبعين رجلاً بينهم امرآتان ، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين.

وينقل إلينا خبر هذه المقابلة التى سميت "ببيعة العقبة الثانية" كعب بن مالك رضى الله عنه وهو ممن شهدها ، فيقول: "خرجنا فى حجاج قومنا ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور ، سيدنا وكبيرنا(٢) ، ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٣٥٧ ، ٣٥٨ ، زاد المعاد ج٣ ص٤٥ ، نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص٥٣، ٥٤.

(٢) يروى كعب بن مالك رضى الله عنه فى هذا السياق أن حدث اختلاف بين البراء=

لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، وكُنا نكتم مَنْ معنا من المشركين من قومنا أمرنا ، فَكَلمنّاه ، وقلنا له: ياأبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة -وكان نقيباً- فبتنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل مستخفين تسلل القطا ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو ابن عدى ، فاجتعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا: خُذْ مِنَّا لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة(١) ،

= وسائر الجمع فى القبلة ، فلما قدما مكة أتى البراء وكعباً رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتيانه فى الأمر وهما لايعرفانه ، مما يُبين العقيدة الصحيحة تدخل إلى القلوب قبل أن تلحظ الأعين من يدعو إليها ، ولا يكون ذلك إلا فى الانتقال من الجهالة إلى الإسلام ، ومن الظلمات إلى النور ، وسبحان الله العظيم ! فقد كانت قريش تعرف محمداً صلى الله عليه وسلم حق المعرفة وخالفوه ، فى حين سعى إليه من هُدُوا إلى دعوته وهم مارأوه بعد !.

(١) الحلقة: السلاح.

ورثناها كابراً عن كابر" ، فاعترض القول – والبراء يتكلم – أبو الهيثم بن التيهان فقال: "يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال (يعنى اليهود) حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عَسَيْت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟" فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى أحَارِبُ من حاربتم وأسالم من سالمتم".

ثم قال رسول الله عليه وسلم: أخْرِجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فلما تخيرهم رسول الله عليه وسلم قال للنقباء: "أنتم كُفلاءُ على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى" ، فقال القوم: نعم ، وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ، ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك.

ويذكر الطبرى فى إحدى رواياته(١) ما يفيد أن أحد الأنصار أراد أن يُبين لقومه فى العقبة عِظَم المهمة التى يبايعون عليها حتى يكونوا أهلاً لها ويُوطنوا أنفسهم على تحملها –وكان هذا هو العباس بن عبادة بن نضلة– فقال: يامعشر الخزرج ، هل تدرون عَلاَمَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم ، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله خِزْى الدنيا والآخرة إن فعلتم ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا: فإنا نأخذه على مُصيبة الأموال وقتْل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول إن نحن

---

(١) عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة (ج٢ص٣٦٣).

وفينا ؟ قال: الجنة ، قالوا: ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه.

وهكذا تتوطد عرى المعاهدة ، وتتواثق أواصر البيعة ، ويتعهد الأنصار - وفيهم من لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل- على بذل الأموال والأرواح فى سبيل الله ونصره نبيه صلى الله عليه وسلم فى يثرب التى لم ينزلها بعد ، على حين آذاه قومه بمكة ، وهو الذى كان فيهم الصادق الأمين ، فهو نَصْر الله لنبيه وإظهاره لدينه.

ثم يشتد الحماس بالأنصار ، ويتعجلون الانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل عودتهم إلى بلدهم ، إذْ لما فرغوا من البيعة ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ارْفضُّوا إلى رحالكم" أى عُودوا إليها ، قال العباس بن عبادة بن نفلة: "والذى بعثك بالحق إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا" ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم نُؤمر بذلك (أى بالقتال) ولكن ارْجعُوا إلى رحالكم".

وهنا يجب أن تكون لنا وقفة لنرى ذلك الباعث الذى يجعل هؤلاء النفر من الأنصار الذين لم تكن لأكثرهم معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل يعرضون عليه الثأر له من أهل الشرك ، وهؤلاء النفر لايزيدون على بضع وسبعين رجلاً ، وأهل منى لاحصر لهم ، لابد أن الذى حَرّك فيهم هذه المشاعر هو الإسلام الذى عرفوه بالقرآن ، وبما شرح لهم من تعاليمه ، من دون أن يستنفرهم إلى الجهاد أحد ، ومن دون أن يفكروا فى النسبة العددية بينهم وبين أهل الموسم ، فكأنهم بالقرآن هُدُوا إلى الإيمان ، وبالإيمان علموا أن النصر لا يستلزم الكثرة بقدر ما تدفع إليه الحمية الإيمانية وحب التضحية فى سبيل المبدأ الحق.

قال كعب بن مالك: فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا ،

فلما أصبحنا غدت علينا جِلّة من قريش فقالوا: يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حَىٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

وهذا يعنى أن الخبر قد تَفَلَّت إلى قريش وعلموا بأمر البيعة ، ولكن قَيَّض الله من انبرى من مشركى يثرب يحلفون للقرشيين بالله أن لم يحدث ذلك الأمر، ويؤكدون ذلك بقولهم: ماكان من هذا شيىء وماعلمناه ، وقد صدقوا فهم لم يعلموا بشيىء منه ولا رأوه ، والمبايعون من الأنصار ينظر بعضهم إلى بعض فى دهشة ؛ حيث يدافع الباطل وأهل الشرك عن الحق وأهل الإيمان.

ولكن بعد نفر الحجيج من مِنَى تَحَرَّتْ قريش الخبر ، فعلموا أنه قدْ كان ، وأن خبر البيعة صحيح ، فخرجوا فى طلب اليثربيين حتى أدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً ، بموضع قريب من مكة يُسمى أذاخر ، فأما المنذر فأعجز القوم وهرب منهم ، وأما سعد فأخذوه ، وربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحلة ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة ، وهم يضربونه ويجذبونه بجبهته وهو كثيف الشعر.

يروى سعد بن عبادة فى ذلك قوله: فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أقبل إلىّ رجل ممن كان معهم ، فقال: "ويْحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت: بلى والله ، لقد كنت أجير لكل من جبير بن مطعم والحارث بن أمية تجارهما وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى" ، قال: "ويحك فاهتف باسمهما" ، ففعلت ، فجاء مطعم بن عدى والحارث بن أمية فَخَلَّصانى من بين أيديهم " وهكذا نجا سعد وعاد إلى أهله فى يثرب.

ويلحظ مؤلف "فقه السيرة"(١) فارقين مهمين جديرين بالملاحظة والتأمل بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية .

الفارق الأول: أن عدد المبايعين من أهل يثرب فى المرة الأولى كان إثنا عشر رجلاً فقط ، أما فى البيعة الثانية فقد كان بضع وسبعون بينهم امرأتان ، وقد عاد أولئك الإثناعشر فى السنة الأولى ومعهم مصعب بن عمير ، لا لينطوى كُلٌ على نفسه وينعزل فى بيته بل ليبشر بالإسلام كُل مَنْ كان حوله مِنْ رجال ونساء ، يتلو عليهم قرآنه ، ويبين لهم أحكامه ونظامه ، فمن أجل ذلك انتشر الإسلام تلك السنة فى المدينة انتشاراً عظيماً حتى لم تَبْقَ دار إلا دخلها ، وأصبح حديث أهلها فى عامة الأوقات عن الإسلام وخصائصه وأحكامه، وتلك هى وظيفة المسلم فى كل عهد وفى كل مكان.

والفارق الثانى: أن البنود المنصوص عليها فى البيعة الأولى جاءت خالية من الإشارة إلى الجهاد والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته بكل وسيلة. وسبب هذا الفارق أن أصحاب البيعة الأولى انصرفوا وهم على موعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفس المكان فى الموسم التالى، ليعودوا إليه بعدد أوفر من المسلمين ، ويجددوا العهد والبيعة ، فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعته على القتال مادام الإذن به لم يأت بعد ، وما دام أن هؤلاء المبايعين سيلتقون بعد عام مرة أخرى مع رسول صلى الله عليه وسلم، كما أنه فى البيعة الأولى لم تكن الصورة مكتملة عمن سيدخل الإسلام من أهل يثرب ، ولا عن المدى الذى ستبلغه الدعوة بينهم ، أما فى البيعة الثانية فقد اكتملت الصورة بياناً ، وظهر أن يثرب تأخذ طريقها إلى الإسلام سريعاً ، وأنها قد

---

(١) الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطى.

*أ*تمهدت بالفعل لصيانة الدعوة وصاحبها ، يتجلى ذلك فى أمرين:

أولهمـــا: العدد الوافر ممن قدم مكة مسلماً من رجال ونساء.

وثانيهما: تلك الروح الفتية التى واجه بها هذا الوفد بنود المعاهدة، وتحمسهم الشديد للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بلدهم (يثرب) بكل غـال، بل وتطوعهم للثأر ممن أذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه فى ذات الموسم.

فقد كـانت البيعـة الأولـى إذنْ بيعـة مؤقتـة ؛ بالنسبة لاقتصارهـا علـى تلـك البنود فقط ، وهى التى بويع عليها النساء من بعد ، أما البيعة الثانية فقد كـانت الأساس الذى سيهاجر الرسول صلـى اللـه عليـه وسلم إلـى يـثرب بنـاءً عليـه ، ومـن ثـم فقد كـانت شـاملة للمبـادىء التـى سيتم تشريعها بعد الهجـرة ، وفـى مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بالقوة ، وهو حكم وإن لم يكن قـد أذن اللـه بمشروعيته فى مكـة ، فـإن اللـه قـد ألهم نبيـه صلـى اللـه عليـه وسـلم أن ذلـك سيشرع فى المستقبل القريب ، مادامت قد تهيأت له الظروف.

انفراج الغمة:

بعد أن رجع المسلمون من الأنصار إلى يـثرب ، وعلمت قريـش بمـا كـان من أمر البيعة ازدادت حنقاً على الإســلام والمسـلمين ، وخشـيت مـن أن ينتصـر الأنصار لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ إذ صاروا له أعواناً يتزايدون كل يوم ، كل هذا دعا قريشاً إلى التشدد فى أمر إيذائه صلى اللـه عليـه وسـلم والمسـلمين معه ، وتعقبهم والتضييق عليهم ، فنالت قريش بذلك منهم مالم تنله من قبل.

وضاق المسلمون ذرعاً بمـا يلاقونه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار عليهم بالخروج إلى يثرب التى أصبحت ممهدة لاستقبالهم، وجعل المسلمون يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجـون خفيـة مـن قريـش ، ولـم

يُجاهر بهجرته إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى تحدى قريشاً كلها بهجرته العلنية ، وتتابع الناس فى الهجرة أرْسالاً ، حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوبكر وعلى ، أو معذب أو مريض أو ضعيف لايستطيع الخروج.

وهكذا مثلت الهجرة ضرباً صريحاً من ضروب النصر التى لم تشهدها أية معركة حربية، مهما كان عظم الجيش الفاتح ، ومهما كان استسلام أهل البلد ؛ إذْ كانت الوفود تتوالى إلى يثرب ، فيستقبلهم أهلها الذين أنار الله قلوبهم بأحسن ما يكون الاستقبال ، وتزداد بهجة الفريقين ، المهاجرون بما آل إليه أمرهم ، وبما فتح الله عليهم ، وخلاصهم من الأذى والاضطهاد. والأنصار بوفود إخوانهم عليهم وتكثيرهم لهم ، والكل فى ذلك مُضَحٍّ غاية التضحية ، فمن هاجر ترك المال والأهل ، والأنصار أمام ذلك وضعوا كل إمكاناتهم وممتلكاتهم تحت تصرف إخوانهم ، فالكُل فى كل الحقوق سواء ، حتى استحق الأنصار بذلك ثناء الله عزوجل على حسن صنيعهم ، إذ قال: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ"(١) ، ثم يثنى الله عزوجل على المهاجرين والأنصار ، ويُزكىٍّ تآلفهم وتآخيهم فى سبيله بقوله: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ أَوَوْا وَنَصَرُوا

---

(١) الآية: ٩ من سورة الحشر.

أولئِكَ هُمُ المؤمِنُون حَقاً لَهُم مَغْفِرةٌ وَرِزْقٌ كريم"(١).

وهكذا تتحول يثرب إلى دار إسلام ولَمَّا يدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماذا عساه يكون السبب فى ذلك ؟ إنه القرآن الذى انتشر ضياؤه فى جنباتها ، بعد أن تمكن من قلوب أهلها ، كما إنها إرادة الله عزوجل بما اقتضته لأهل هذه المدينة من انشراح الصدور لاستقبال الهدى والنور الذى طالما رُفِضَ فى قَوْمِه ، وطورد فى بلده ، ليسجل الأنصار بذلك أعظم الأدوار فى التضحية والبذل فى سبيل الله والرسول وإنقاذ النفس من عبودية الطاغوت، وليأتلف من كانوا بالأمس حرباً على بعضهم ، وليبغضوا جميعهم ذلك العدو -الصديق من قبل- (اليهود) الذى طالما أشعل نار الفتنة ، وأجج لهيب الوغى ، حتى هلك الكثير من الفريقين (الأوس والخزرج) فى حروب لا واقع لها ولا دافع إلا أن تظل كلمة اليهود مسموعة ، وأموالهم محفوظة ، ويدهم طُولى.

ويبقى الرسول صلى الله عليه وسلم ونفر قليل معه بمكة ، ويتعجل أبوبكر الهجرة ويستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الخروج فيستمهله حتى يأذن الله تعالى لنبيه. ولما جاء الإذن بَيَّت النبى صلى الله عليه وسلم مكانه عليا بن أبى طالب ليرد الودائع إلى أهلها حين يُصْبح ، وهنا تظهـــــر دلالة باهرة على التناقض العجيب الذى كان المشركون واقعين فيه ؛ ففى الوقت الذى كانوا يكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم ويرونه ساحراً أو مخادعاً لم يجدوا من حولهم من هو خيراً منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لايضعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده ! فهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه ، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاءهم به ،

---

(١) الآية: ٧٤ من سورة الأنفال.

وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم(١) . كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يرفض قبول هذه الأمانات ، وقد يأتيه بالليل من كان يتربَّصُ به بالنهار ليضع عنده أمانته ، وهو واثق أنها مضمونة ، فهى فى أطْهَر يد ، وفى أحْفَظِ بَيْت.

ألا ما أعظمها من أمانة يربيها الإسلام فى نفوس معتنقيه ، وما أجدرها من مبادىء يرسى دعائمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يستبقى من يَرُد ودائع الظالمين والجبارين ، إذْ هو صلى الله عليه وسلم الأمين المؤتمن الذى لايغدر ولايخون الأمانة ، حتى وإن كانت للعدو ، كل ذلك كان فيه صلى الله عليه وسلم فى مقابل أن القوم كانوا يُعِدُّون للخلاص منه والحيلولة بينه وبين الخروج من مكة ، وينعى عليهم رب العزة ذلك ، ويؤيد نبيه ويثبت قلبه فى قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوك أَوْ يخرجوك وَيَمْكُرُون وَيَمكرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرين"(٢). ثم يكون الدليل الذى يُرشد ركب الهجرة النبوية هو عبد الله بن أريقط ، المشرك ، ليظهر لنا دائماً أن الباطل لايتخلف عن مُناصرة الحق ما أراد الله ، وكلها إشارات وأمارات لمن كان له عقل يتدبر به ، لكن أين هؤلاء من هذه الأمارات ؟ وأنَّى لهم أن تفهم عقولهم ما يُستنبط منها ؟ مادام الله قد أراد الخير لنفر سِواهُم ، هُمْ أهل يثرب .

ويُستَقْبَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يثرب استقبال الحبيب المُرتجى والعزيز المنتظر ، فى مَشْهدٍ لمْ يُسجل التاريخ مثله ، ولم يُستقبَلْ به أىُّ فاتح مُنتصر فى تاريخ البشرية ، فتخرج ولائد من بنى النجار فرحات بمقدم

---

(١) البوطى: فقه السيرة ص١٤٦ .

(٢) الآية: ٣٠ من سورة الأنفال.

النبى صلى الله عليه وسلم وجواره لهن ، وهن ينشدن:

نحن جوار من بنى النجار يا حبــذا محمد جــار

ثم تزداد حرارة الاستقبال المهيب لصاحب دعوة الهدى والنور ؛ حيث يقدم على من طال انتظارهم له ، فينشدون نشيد البهجة والسرور:

طلـع البدر علينا من ثنيات الـــــوداع

وجـــــب الشكر علينا مادعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحبا ياخير داع

ولايبين هذا الاستقبال الرائع من أهل يثرب عن مظاهر الود والحب الذى يكنونه للنبى صلى الله عليه وسلم فقط ؛ بل إن هذا الاستقبال وما تجلى فيه من المظاهر القيمة ليكشف بوضوح عن أمْرٍ آخَرَ مُهِمّ ، ألا وهو اتساع الفارق بين كراهية المكيين وعداوتهم للرسول -بحيث يضطرونه إلى الخروج من داره وأهله وبلده- وبين هؤلاء اليثربيين الذين هُمْ مع قُرْبِ إيمانهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ودعوته فقد لازمت قلوبهم محبته ، فآثروا لأجله واحتفوا بمقدمه ، مما جعل من هذا الاستقبال نقطة بارزة سجلت فى صحائف التاريخ ، لتظل حاملة لهذه المعانى .

ويسجل شاعر الأنصار (أبو قيس صرمة بن أبى أنس الأنصارى) زهو الأنصار وسعادتهم بمقدم النبى صلى الله عليه وسلم ومقامه بينهم ، فيقول:

ثـــــوى فى قريش بضع عشر حجة يُذكِّر لو يلقــى صديقاً مُواتيـا

ويعـــــرض فى أهل المواسم نفسه فلم يَـرَمَـنْ يؤوى ولَمْ يَرَداعيا

فلمـــا أتانا أظهـــــر اللـــه دينــه فأصبح مسروراً بطيبة راضيـا

وألفـى صديقـاً واطمأنـت به النى   وكان له عوناً من الله بـاديـا
يقـص لنا مقـال نـوح لقومه   وماقـال موسى إذْ أجاب المناديا(١)
وأصبح لايخشىمن الناس واحـداً   قريباً ولايخشى من الناس نائباً
بذلنا له الأموال من جُـل مالنا   وأنفسنا عند الـوغى والتآسيا
نُعادى الذى عادى من الناس كلهـم   جميعاً وإن كان الحبيب المواتيا
ونعلم أن الله لاشيىء غيـره   ونعلـم أن الله أفضل هادياً

وهكذا يتبدل الحال ، ويتغير المقام ، ويُرْسِى النبـى صلـى اللـه عليـه وسلـم دعـائم الدولـة الإسلامية علـى خـير الأُسـس ، فيبنـى المسـجد ، ويؤاخـى بيـن المهاجرين والأنصار ، ويعقد عهداً مع يهود يثرب كيما يعيشون فى حسن جـوار كأهل بلد واحد ، لتتحول يثرب بذلك إلى مدينة النور ، وعاصمة النبوة ، ومركـز الانطـلاق بـالدعوة إلـى شـتى الآفـاق ، وتتحمـل المدينـة المنـورة عبء المهمـة النورانية التى لم تستطعها مكة ؛ بل ويخرج النور من المدينة إلى مكة فـى عـام الفتح ، لتنعم بمالم تَهْتَدِ إليه من قبل ، وليدخل أهلها -المعاندون من قبل- فـى دين الله أفواجاً.

---

(١) فهـم اليثربيون -وهم الذين كانوا على الشرك حتى الأمس القريب- أن دعوة محمد محمـد صلى الله صلى الله عليه وسلم هى إتمام لرسالات الأنبياء السابقين ؛ فى حـين لـم يشأ اليهود وهم أهل كتاب أن يُقِرُوا بذلك ، بل فوق هذا فقد أنكروا ماهو واقـع ومعلوم لديهم ، إذْ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم يكتمـون الحق عن قَصْد وَعَمْد !

وبهذا فقد كان أول الفتوح وأجَلَّها المدينة المنورة(١) التى فتحت بالقرآن(٢)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يُفتح من مصر أو مدينة عنوة، فإن المدينة فتحت بالقرآن" ، كما قال صلى الله عليه وسلم:"إن لكل نبى حرماً، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة،مابين حرميها لايحتل خلالها، ولايعضد شجرها،ولا يُحمل فيها السلاح لقتال،فمن أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،لايقبل الله منه صرف ولا عدل"(٣).

ويجب ألا يفوتنا ونحن بصدد موضوع الهجرة النبوية أن نتبين منها أنها كانت فى حد ذاتها تنطوى على عدة إعجازات إلهية صاحبت تلك الرحلة ، ولازمت ذلك الركب المهيب -رَكْبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق ودليلهما ابن أريقط-؛ فبحفنة تراب يلقيها النبى صلى الله عليه وسلم على رءوس الفتية المتربصين به يُغشى عليهم ، ويأخذهم التيه حتى يمر صلى الله عليه وسلم من بين أيديهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول: "وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُم فَهمُ لاَيُبْصِرُونَ"(٤).

---

(١) قدامة بن جعفر بن قدامة (ت ٣٢٩هـ): الخراج وصناعة الكتابة ، ص٢٥٦ ، تحقيق د/محمد حسين الزبيدى ، بغداد ١٩٨١م.

(٢) د/بنت الشاطىء: قبل الهجرة فُتحتْ يثرب بالقرآن . مقال منشور بجريدة الأهرام المصرية. رمضان ١٤١٣هـ.

(٣) قريب من هذا وردت أحاديث كثيرة فى فضل المدينة فى صحيح مسلم ج٩ص١٤٥/١٤٨

(٤) الآية: ٩ من سورة يس.

ثم يجعل الله عزوجل من صُخُور الغار حجاباً حاجزاً يحمى الرَّكْب الكريم ، ومنْ نَسْجِ العنكبوت الواهى ، وعشّ الحمامتين الضعيفتين سَدًّا مانعاً مُموهاً ، يجعل المُطَارِدين للركب يستبعدون سكنى الغار وهذه حاله ، وعندما ينفد الزاد والماء ، يسُوقه الله عزوجل من ضرع شاة أم معبد الهزيلة التى خلفها الجهد عن القطيع ، وكذا يقبل سراقه بن جشعم صاحب أغلى مكافأة بفرسه العنيد وسيفه الصند على نبى الله صلى الله عليه وسلم ، ثم هو فى لحظة يتحول إلى مدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاد عنه ، بعد أن كان هدفه المنشود العودة بالنبى إلى ألدّ أعدائه.

كل هذه الإعجازات والآيات الربانية الباهرة كان ينبغى أن تجد حواراً فى نفوس أهل الشرك بمكة ، كما كانت علامات استفهام يجب أن ينتبهوا إليها ويدرسوا أمرها ، ليدركوا أن هذا الذى حدث لم يقع لبشر عادى ، ولاتحققه قوة بشرية ، وإنما كان وراء كل هذه الآيات قدرة السماء القاهرة ، تؤيد الدعوة والداعى ، وتعصم الرسول المبلِّغ ، ولكن غابت عقول القوم وأغشيت أبصارهم وبدلاً من أن يتأملوا ما حدث أخذوا يعدون لحرب النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى المدينة ، مُحاولين النيل منه ومنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً !.

صُلْحُ الحديبية وفتْحٌ بلا قِتال:

لم يدَعِ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ آمن معه يهنأون بعيشهم فى المدينة المنورة ، بل تكالبوا على حربه ، واستنفروا معهم أهل النفاق واليهود عليه ، فما كاد العام يمضى إلا ورحى الحرب دائرة هنا أو هناك، ولم تشغل كل هذه الخطوب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يتطلع إلى زيارة بيت الله الحرام بمكة وأداء العمرة ، حيث رأى النبى صلى الله عليه فى منامه أنه دخل البيت وحلق رأسه ، وأخذ مفتاح البيت ، وعَرّف مع المعرفين " أى وقف بعرفة"(١).

فاستفر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فكانوا حوالى ألف وأربعمائة، كلهم يريدون العمرة وذلك فى أول ذى القعدة من آخر العام الهجرى السادس ، وتخلَّف عنهم المنافقون وضعاف الإيمان من الأعراب الذين آمنوا بألسنتهم ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم. ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يقصد قتالاً ولاحرباً لأهل مكة ، وإنما قصد العمرة التى هى متاحة لكل الناس لايُمنع منها أحد ، ومن ثم فقد ساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة فى الطريق ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه خرج زائراً لهذا لبيت ومعظماً له ، ليس معه إلا سلاح المسافر فى الصحراء ، وهو السيوف فى قرابها ، ومعه ثلاثمائة فارس ومائتا فرس ، كما اصطحب معه زوجه أم سلمة رضى الله عنها ومعها من نساء المؤمنين ثلاث نسوة ، واستعمل على المدينة

---

(١) الواقدى: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ): كتاب المغازى ج٢ ص٥٧٢ ، تحقيق د/مارسدن جونس ، بيروت (د.ت) ، الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ١٣١.

رجلين أحدهما للإمارة والثانى للإمامة.

وإذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم مكائد قريش وغدراتها ، فقد جعل بِشْر بن سفيان الخزاعى عيناً له ، ووجهه وهو بذى الحليفة لكى يأتيه بخبر أهل مكة ، وينْقل إليه ردود أفعالها وقد علمت بخروجه معتمراً ، وكان اختيار النبى صلى الله عليه وسلم لبشر بالذات لأنه أسلم فى شوال ، فلا يظنه من رآه عيْنا فلا يؤذيه.

وهكذا وضحت نية النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، فهم لايقصدون سوى زيارة البيت وأداء العمرة ، ولم يعدو مايلزم الحرب من سلاح أو كراع أو نية(١)، على حين أن قريشاً لما علمت بهذا المسير راعها ذلك ، واجتمعت كى تتشاور فى أمره ، وخلصوا فى رأيهم إلى أن قالوا: يريد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً فتسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب مابيننا ! والله لاكان هذا أبداً ومنا عَيْن تطرف فارتأوا رأيكم! فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذوى رأيهم ، هم صفوان بن أمية ، وسهل ابن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل (٢).

فقال صفوان: ماكنا لنقطع أمراً حتى نُشاورْكم ، نرى أن نُقدم مائتى فارس إلى كُراع الغميم ، ونستعمل عليهم رجلاً جلداً ، فقالت قريش: نعم ما رأيت ، فقدموا على خَيْلهم عِكْرمة بن أبى جهل -ويقال خالد بن الوليد-(٣) واستنفرت

---

(١) وكان بإمكان النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يتهيأ للحرب ويستعدوا ، وهم الذين خاضوا غمارها فى الإعوام القليلة الماضية كثيراً ، حيث احتكوا بأعدائهم فى غزوات بدر وأحد والخندق وصارت لهم دراية كبيرة بأعمال القتال وهم الذين يلقون بأنفسهم فى الوغى لايخشون بأساً ولا يخافون عدواً.

(٢) مغازى الواقدى ، ج٢ ص٥٧٩.

(٣) شك من الواقدى ، والغالب أنه كان خالد بن الوليد كما هو ثابت فى أكثر الروايات.

قريش من أطاعها من الأحابيش ، وأجلبت ثقيف معهم ، وقدموا خالد بن الوليد فى الخيل ، ووضعوا العيون على الجبال حتى انتهوا إلى جبل يُقال له: "وزر وزع" ، وكانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف ، يوحى بعضهم إلى بعض الصوت الخفى: فعل محمد كذا وكذا ، حتى ينتهى ذلك إلى قريش بمكان يسمى "بلدح" خارج مكة من جهة الغرب ، وكانت قريش قد خرجت إلى هذا المكان فضربوا به القباب والأبنية ، وعسكروا فيه بالنساء والصبيان .

وهكذا أظهرت قريش من العداوة والكيد كل ماعندها ، وأعدت العدة لافتراس هذا الركب المؤمن الذى ماجاء إلا معتمراً ، وأرادت أن تشفى غليلها بالقضاء عليهم ، وقد أتوها فى عقر دارها ، ذلك المجيىء الذى لم تحل قريش بينه وبين أحد نواه من قبل.

وقبل أن يغادر جمْعُ المسلمين ذى الحليفة أشار عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: يارسول الله ، تَدْخل على قومٍ هُمْ لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ ! فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله(١) ، لكن هذا التسليح العارض لايُقلِّلْ من النية السلمية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولايُحَوِّل الهدف عن مَرْماه ، وإنما هو مجرد تحوط للأمر واستعداد للدفاع عن النفس فقط إن اضطروا إليه.

وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق البيداء، فجعل يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم، فيتشاغلون له بأموالهم وأهليهم، ويقولون فيما بينهم: أيريد محمد أن يغزُ بنا إلى قوم معدين ومؤيدين فى الكراع

---

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٢٢.

والسلاح؟ إنما محمد وأصحابه أكلة جزور، ولن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً، قوم لا سلاح معهم ولا عُدة، وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أصلب منهم ببدر (١).

ولم يتأثر النبى صلى الله عليه وسلم بما أبداه هؤلاء الأعراب، فما وجهته إلا سلمية بحته، فسار حتى وصل إلى مكان يسمى "غدير الأشطاط" بالقرب من عسفان، فأتاه العين الذى كان قد أرسله، فقال له: أن قريشاً جمعت لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "أشيروا أيها الناس"، فقال أبو بكر رضى الله عنه: يارسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتْل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "امضوا على اسم الله" (٢).

وفى رواية عن الزهرى أنه صلى الله عليه وسلم خرج حتى إذا كان بعسفان أتاه العين بشر بن سفيان الكعبى فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل- أى خرجوا بكل ما يحتاجون إليه استعداداً لصد المسلمين- قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموا إلى كراع

---

(١) محمد عبد العليم العدوى(الدكتور): صُلْح الحديبية ص ١٣٨٥ بحث منشور بمجلة الأزهر رمضان ١٤٣١هـ - ١٩٩٣م.

(٢) الإمام البخارى: أبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن بَرْدِزْبَة الجعفى(ت٢٥٦هـ) صحيح البخارى ج٦ ص٣٦٤ "كتاب المغازى" طبع لجنة إحياء كتب السنة. القاهرة١٣٩٠هـ-١٩٧١م.

الغميم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن هم أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام، وآخرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش، فوالله لاأزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله إلى أن تنفرد هذه السالفة"(١).

سِلْم المسلمين وعُدْوانُ المشركين

لم تُؤثِّر كل هذه المؤشرات والدلائل على نية العدوان والاقتتال عند قريش على خطة النبى صلى الله عليه وسلم أو تصده عن بلوغ هدفه، أو تزعزع ثقته فى المبادئ التى آمن بها، مادام يمتلك الرأى والعقل يحاجج بهما أعداءه، ومن ثم فقد قام فى المسلمين خطيباً، فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فكيف ترون يا معشر المسلمين فى هؤلاء الذين استنفروا إلىّ من أطاعهم ليصدونا عن المسجد الحرام؟ أترون أن نمضى لوجهنا إلى البيت فمن صدنا عنه قاتلناه، أم ترون أن نخلف هؤلاء الذين استنفروا إلى أهليهم فنصيبهم؟ فإن اتبعونا اتبعنا منهم عنق يقطعها الله، وإن قعدوا قعدوا محزونين موتورين(٢).

هنا نهضت الهمة بأبى بكر ونفر من المسلمين فأخذوا يشيرون على النبى صلى الله عليه وسلم بالمسير ودخول البيت مادام القصد حميداً، ومادام الله فى نصرة من يؤمن به، وأشار أبوبكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم قائلاً: نرى

---

(١) السالفة: صفحة العنق "ويُقْصد بانفرادها المَوْتُ فى الجهاد".

(٢) مغازى الواقدى ج٢ ص٥٨٠.

يارسول الله أن نمضى لوجهنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه، فاستدرك عليه النبى صلى الله عليه وسلم قائلاً: فإن خيل قريش فيها خالد بن الوليد بالغميم، فقام المقداد بن عمرو ليؤكد على وجهة نظر أبى بكر ويعزز الرأى القائل بالتوجه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، لانقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اذْهبْ انْتَ وربُّك فقاتِلاَ إنَّا هَهُنَا قَاعِدُون"(١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله يا رسول الله لو سرت بنا إلى بِرْك الغماد(٢) لسرنا معك ما بقى منا رجل، وأضاف أُسيد بن حضير: يارسول الله، نرى أن نصمد لما خرجنا له، فمن صدنا قاتلناه.

وهنا يؤكد النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه على الهدف الذى خرجوا له،فيقول:"إنا لَمْ نخرج لقتال أحد،إنما خرجنا عُماراً"وذلك حين رأى من أصحابه الجد فى الأمر والعزم على القتال إن قُوتلُوا،فهاهو قد استشارهم وهذا رأيهم.

غير أن قريشاً لم تمهل محمداً صلى الله عليه وسلم والمسلمين؛ إذ كان خالد بن الوليد قد تحرك بجنده من الغميم إلى وادى عسفان ، محاولاً استفزاز المسلمين، وقصد الهجوم عليهم فى أثناء الصلاة ، فصلى النبى صلى الله عليه وسلم بمن معه صلاة الخوف(٣) وأخذ المسلمون حذرهم، حتى أمسى عليهم الليل، فآثر الرسول السلامة وعمد إلى طريق أخرى غير الطريق المعتادة، كى يتحاشى الاصطدام بهم، مُستعيناً فى ذلك برجل من أَسْلم يعرف الطريق الجديد الذى كان وَعْراً وشاقاً أكثر من الطريق المعتاد.

---

(١) من الآية: ٢٤من سورة المائدة.

(٢) موضع وراء مكة على مسير خمس ليال.

(٣) مغازى الوافدى ج٢ ص٥٨٣.

ولم يكن خروجه صلى الله عليه وسلم عن الطريق المعتاد خوفاً من قوات قريش ؛ فإن الذى يخاف عدوه ينسحب من أمامه ولايقترب من قاعدته الأصلية ومركز قواته، وحتى إذا لم ينسحب فإنه يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية، حتى يطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله، ويجعل فرصة النصر أمامه أقل مما يكون فى حالة الاقتراب من القاعدة الأصلية. وتوخى الهدف مبدأ من مبادئ الحرب المهمة وهو أن نعرف هدفنا تماماً، ونفكر بأحسن وسيلة للوصول إليه، ثم نُقرر خطة مناسبة للحصول عليه، وننفذ تلك الخطة جاعلين هدفنا الرئيسى وحده نصب أعيننا، دون أن تُعيقنا أو تُغير من خطتنا الأهداف الثانوية الأخرى(١).

وأرى إضافة لذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم تفادى الصدام مع خالد بن الوليد وطلائعه مُؤثراً السلامة أولاً، ولئلا يجر الالتحام معه إلى استنفار قريش من مرتكزها إلى عسفان، وكذا فإنه صلى الله عليه وسلم قد أراد أن يعلم قريشاً أنه لو جاء للقتال لالتقى بطلائعهم الأولى، ثم عَلَّهُ فى النهاية يلتقىبأحدٍ من عقلاء القوم الذين هم فى المؤخرة، فيوضح له الأمر، ويتفقا على تحكيم العقل.

واقترب جَمْع المسلمين من الحديبية، فَبَرَكَتْ ناقة النبى صلى الله عليه وسلم فى ثنية المرار التى تشرف على الحديبية، فقال الناس: خلأت(٢) فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ماخلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس

---

(١) محمد عبد العليم العدوى: صلح الخديبية ص١٣٨٨.

(٢) أى حَرَنت.

الفيل عن مكة ، لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها(١). وهذه إشارة جديدة إلى استعداد النبى صلى الله عليه وسلم لمهادنة قريش، والوفاء لهم بما يطلبون فى مقابل تركه هو والمسلمين يؤدون عمرتهم، وفيها كذلك نزع لكل دواعى الحرب، فما كانت فى حسبانه صلى الله عليه وسلم ولا أعد لها.

خزاعة تخشى وقوع الحرب

كان الخزاعيون- مسلمهم ومشركهم- موضع الأمانة على سر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وهم عيبة نصح له، وذلك امتداد لحلف كان قد أبرم فى الجاهلية بينهم وبين بنى هاشم وما زالوا يحفظونه، ويوالون به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أحسوا بخطورة الموقف وتحرجه، بعثوا منهم وفداً برئاسة "بديل بن ورقاء"، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية، فسلموا عليه، وقال بديل: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى- يعنى قريشاً- قد نزلوا أعداد(٢) مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إنا لم نأت لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده

---

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٢٤، والواقدى على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أما والله لايسألوننى اليوم خطة فى تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها.

(٢) يعنى نزلوا على ماءٍ دائم لاينقطع، وكان المسلمون نزلوا فى منطقة قل ماؤها وندر.

لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره، فقال بديل: سنبلغهم ما تقول.

وفهم الوفد من خزاعة مقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجعوا إلى قريش، وكان في الوفد عمرو بن سالم، فجعل يقول لمن معه ويقصد قريشاً: والله لاتنصرون على من يعرض هذا أبداً، وركبت قريش رأسها لما رأوا بديل وصحبه، وقالوا لا تسألوهم عن شيئ فإنما جاءوا ليستخبروكم، فلما رأى بديل وأصحابه صدود قريش عنهم قال: إنما جئناكم من عند محمد، أتحبون أن نخبركم؟ فقال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص: لاوالله، مالنا حاجة بأن تخبرونا عنه، ولكن أخبروه عنا أنه لايدخلها علينا عامه هذا أبداً، حتى لايبقى منا رجل.

هذا الصدود من قريش يكشف إلى أي مدى كانت تعلم مقصد المسلمين، ثم هي تكابر،وتجعل أصابعها في آذانها،خشية أن ينطلي عليها الأمر،ويقتنع به البعض،فلا يُحكمون أمرهم في إنفاذ ما اعتزموه، يعني صَمَّوا آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، لا لشيئ إلا لأن دخول المسلمين مكة يعد في نظرهم عاراً لا يصح أن يلحق بهم، حتى وإن فنوا جميعاً في سبيله! .

غير أن رجلاً منهم هو عروة بن مسعود، ناداه داعي العقل فقال لهم: والله ما رأيت كاليوم رأياً أعجب، وما تكرهون أن تسمعوا من بديل وأصحابه؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه، وإن كرهتم شيئاً تركتموه، لايفلح قوم فعلوا هذا أبداً، فقال صفوان بن أمية والحارث بن هشام، وهما من سادات قريش، أخبرونا بالذي رأيتم والذي سمعتم، فأخبروهم بمقالة النبي صلى الله عليه وسلم التي

قالها، وما عرض على قريش من المدة(١).

ووقعت مقالة النبى صلى الله عليه وسلم التى نقلها بديل فى نفس عروة ابن مسعود، وأعجبه ما أظهرته من أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأت لقتال، وأنه مُهادن قريشا ما هادنته، فقال: يا معشر قريش، تتهموننى؟ ألستم الوالد وأنا الولد؟ وقد استنفرت أهل عكاظ لنصركم، فلما بَلَّحوُا(٢) علىّ نفرت إليكم بنفسى وولدى ومن أطاعنى! فقالوا قد فعلت، فقال: وإنى ناصح لكم شفيق عليكم، لا أدخر عنكم نصحاً، وإن بديلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد أبداً إلا أخذ شراً منها، فاقبلوها منه، وابعثونى حتى آتيكم بمصداقها من عنده وأنظر إلى من معه، وأكون لكم عيناً آتيكم بخبره.

بين العقل والحماقة

كان هذا الموقف من عروة بن مسعود مؤشراً يدل على أن هناك من يريد إعمال العقل وتغليب الحجة، وفى هذا ما يضمن للقريشيين أنفتهم، ويتيح للمسلمين أداء عمرتهم، وبخاصة وأن عروة كان سيداً مطاعاً فى قومه، وهذا ما دعاهم إلى أن يجيبوه إلى ما طلب من الوساطة بينهم وبين المسلمين والتجسس لهم عليهم.

وأقبل عروة فى مهمته حتى أناخ راحلته عند النبى صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل حتى جاءه، ثم قال: يا محمد، إنى تركت قومك كعب بن لؤى وعامرابن لؤى على أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم، وهم يقسمون بالله لايخلون بينك وبين البيت حتى

---

(١) مغازى الواقدى جـ٢ ص٥٩٤.

(٢) بلحوا: أى امتنعوا من الإجابة.

تجتاحهم، وإنما أنت من قتالهم بين أمرين ، أن تجتاح قومك، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك ، أوبين أن يخذلك من نرى معك ، فإنى لا أرى معك إلا أوشاباً(١) من الناس ، لا أعرف وجوهم ولا أنسابهم(٢).

وملاحظ هنا أن عروة قد أراد أن يقوم بدور السفير الماهر ، وحاول أن تُسفر جهوده فى رد المسلمين عن مكة وهو ما يبينه كلامه فى الأمر الأول ؛ حيث يضغط على نفسية النبى صلى الله عليه وسلم يقول: ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك . ثم هو فى تناوله للأمر الثانى يُوَرِّى بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من المسلمين ، وأنهم ليسوا أهلاً للقتال وقد يخذلوه ! وهو فى كلا الحالين لم يتطرق إلى وسيلة السلم التى عرضها النبى صلى الله عليه وسلم مراراً بقوله: "إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين".

لهذا كله ثار أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى وجه عروة وقال له: امْصَصْ بَظْر اللاَّت ! أنحن نخذله ؟ فقال عروة لأبى بكر: أما والله ولولا يدٌلكَ عِنْدى لم أجزك بها بعد لأجبتك ، وطفق عروة يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمس لحيته على عادة العرب فى الجاهلية ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف يحرسُه ، فأخذ المغيرة كلما مَسَّ عروة لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرع يده ويقول له: أكفف يدك عن مس رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لاتصل إليك.

---

(١) أى أخلاطاً من الناس.

(٢) الـــواقدى ج٢ ص٥٩٥ ، ونفس المعنى فى تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٢٦ ، د/ بنت الشاطىء الـــرسالة الحضارية للإسلام (صلح الحديبية) وبيعة الرضوان" مقـــال منشور بجريدة الأهرام المصرية ص٨ الخميس ١٩٩٣/٧/٢٩م.

وقام عروة من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن رأى مـايصنع معه أصحابه ، وركب عائداً حتى أتى قريشاً بوجه غير الوجـه الـذى ذهب بـه ، بعدما تبين له الصواب ، ووضع يديه علـى الحقيقـة من جميـع جوانبهـا ، وهـو الذى قلّب الأمور بين يدى رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم فمـا وجـد إلا حقـاً مطلوباً وهدفاً مؤملا ، غير أنه كان يعلم أمر قومه وكيدهم للإسلام والمسلمين، وأنهم لايبادرون إلى الاقتناع بالحجة ، بل يشتطون ويتأبون على الحق الصراح.

وقال عروة لقومه: أى قوم ، واللـه لقد وفدت علـى الملـوك ووفـدت علـى كسرى وقيصر والنجاشـى ، واللـه إن رأيـت ملكـاً قـط يعظمـه أصحابـه مـايعظم أصحاب محمد محمداً ؛ إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علـى وضوئه ، وإذا تكلموا عنده خفضـوا أصواتهـم ، ومـايحدون النظـر إليـه تعظيمـاً له"(١). ".... وقد حزرت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقـد رأيت قوماً ما يُبالون مايُصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، واللــه لقـد رأيـت نُسَيَّاتٍ معه إن كن ليُسلمنه أبداً على حال ، فروا رأيكـم ، وإيـاكم وإضجـاع الـرأى(٢) ، وقد عرض عليكم خطة فَمادُّوه ، ياقوم ، اقبلوا ماعرض فإنى لكـم نـاصح ، مـع أنى أخاف أن لاتنصروا عليه ، رجل أتى هذا البيت معظماً له ، مع الهدْى يَنْحَره وينصرف ! "(٣).

وهكـذا أصبـح عـروة بـن مسـعود مدخـلاً لأن يتفـوق العقـل علــى الحماقـة

---

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٢٧.

(٢) أى الوهن فى الرأى.

(٣) مغازى الواقدى ج٢ ص٥٩٩.

من ص ١٦٩ الى ص ١٧٢ غير موجود من الأصل







أمام المسلمين لكى ينشطوا وينتشروا فى الآفاق لكسب مزيد من الأصدقاء والحلفاء والمنتمين إلى الدين الجديد ، مستغلين من وجهة أخرى فترة السلم التى أتاحتها شروط الحديبية. وكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصراً كبيراً للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أن جزءاً كبيراً من الأحابيس الذين كانت قريش تعتمد عليهم يعدون من بطونها ، وبذلك ضم محمد صلى الله عليه وسلم جزءاً كبيراً من هذه القوة إلى جانبه ، وأضعف بذلك مركز قريش الحربى(١).

وعموماً فقد تجلى فى عهد الحديبية تدبير محمد صلى الله عليه وسلم فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود(٢).

فَتْح مَكَّة وَعَفْو الْمَقْهُورِينْ

انتهز النبى صلى الله عليه وسلم فرصة الهدنة التى وقعها مع قريش فى الحديبية ، وأخذ يبث السرايا فى أنحاء كثيرة كى يبلغ دعوة الحق إلى القبائل والأقوام المجاورين له من العرب ، كما قام بارسال رسله إلى أمراء ومشايخ العرب الوثنيين فى الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام.

وفى العام الثامن الهجرى كانت موقعة مؤتة بين المسلمين من جانب ، والروم وعرب البلقاء فى الشمال من جانب آخر ، ولم يحالف النصر المسلمين

---

(١) عماد الدين خليل (الدكتور): دراسة فى السيرة ص٢٣٢ ، (الطبعة الثانية عشرة)، بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م.

(٢) عبد الحميد بخيت (الدكتور): ظهور الإسلام وسيادة مبادئه. ص٢٨٤.

وفى العام الثامن الهجرى كانت موقعة مؤتة بين المسلمين من جانب ، والروم وعرب البلقاء فى الشمال من جانب آخر ، ولم يحالف النصر المسلمين فى هذه الغزوة ، فتوهم القرشيون أن المسلمين قد وهنت قوتهم وضعفوا ، وأغراهم ذلك بالاعتداء على حلفاء المسلمين من خزاعة لأسباب واهية ، ناقضين بهذا الفعل عهدهم الذى عقدوه مع النبى صلى الله عليه وسلم حينئذ أسرع عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم عليه المدينة وهو جالس بين الناس فى المسجد فقال عمرو مستغيثاً:

يارب إنى ناشد محمداً   حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم: نُصرت ياعمرو بن سالم.

وأعقبه بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، يؤكد ما ذهب إليه عمرو ، فلم يزد الرسول صلى الله عليه وسلم على أن قال لمن حوله: (كأنكم بأبى سفيان قد جاء يشد العقد ويزيد المدة). وكأنه صلى الله عليه وسلم اعتزم أمراً لم يشأ أن يكشفه لرسل خزاعة أو لأصحابه حرصاً على السرية والكتمان(١).

وبالفعل كانت قريش تتوجس مما حدث منها لخزاعة ، وكانت فيما يبدو تحسُّ بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يسكت على فعلتها ، وأدركت خطأها، وأنها ليست بقادرة اليوم على مجابهة غضب المسلمين ؛ وقد ازدادوا عدداً وعدة ، فأرسلت على الفور أباسفيان إلى المدينة علّه يستطيع تهدئة الموقف ، وإعادة الأمور إلى مجاريها ، وتجديد بنود المعاهدة مع المسلمين(٢)، ولكن جاءت هذه الوساطة فى وقت لا يتسع للمهادنة،ولا يسمح بقبول الاعتذار،

---

(١) عماد الدين خليل (الدكتور): دراسة فى السيرة ص٢٤١.

(٢) تاريخ الطبرى ج٣ ص٤٤ ، ٤٥.

وبخاصة وقد نُكِث العهد ، وقُتل الحليف وبدا الغدر ، ومن ثم فقد باءت جهود أبى سفيان بالفشل ، ولم يصل إلى مبتغاه، وعاد خائباً لكى يخبر قريشاً بفشل مسعاه.

وفى أثناء ذلك كله كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجهز للخروج إلى مكة لاستئصال رأس الوثنية واكتساحها ، وقد حرص صلى الله عليه وسلم فى أثناء ذلك على كتمان الأمر حتى عن أقرب أصحابه إليه كيما يفاجىء مكة بهجوم حاسم لاتستطيع معه مقاومة ولا دفاعاً ، فتذعن للأمر ، وتُحقن دماء الفريقين ، حتى إن زوجه السيدة عائشة "رضى الله عنها" عندما سألها أبوها أين ترينه يريد ؟ أجابت: لا والله ما أدرى!، وكون الرسول صلى الله عليه وسلم يقصد بالمفاجأة حقن الدماء يبين لنا مدى حرصه صلى الله عليه وسلم على تحرى السلامة للفريقين ، فمكة مهما كان الأمر بلده الذى نشأ فيه وعاش بين أهله الذين هم قومه ، كما أن الإسلام دائماً يسعى إلى بلوغ الأمر بوسيلة السلم وحقن الدماء . يروى الواقدى أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة ولا يعلم أحد وجهته ، وقائل يقول يريد قريشاً ، وآخر يقول يريد هوازن ، وآخر يقول يريد ثقيفاً..ولم يعقد الألوية ولم ينشر الرايات حتى بلغ " كديد (١) وكان جيش المسلمين عظيماً لايقل عن عشرة آلاف رجل ، حيث استنفر له قادر على القتال.

ووصل زحف المؤمنين إلى (مُر الظهران) بقرب مكة ، فتوقف السير ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، وكان ثلاثة من زعماء مكة قد خرجوا يتحسسون الأخبار فأمسكت بهم طلائع المسلمين ، وسلموهم إلى رسول الله

---

(١) تاريخ الطبرى ج٣ص٥١ ، الواقدى ج٢ص٢٩٧ "بتصرف يسير".

صلى الله عليه وسلم، فأعلن العباسي بن عبد المطلب -وكان قد التقى وأبناؤه برسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين إلى المدينة فعادوا مع الجيش الزاحف إلى مكة - أعلن أنهم فى جواره ، وهم: أبوسفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء الخزاعى. فلما كلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هداهم الله فأسلموا ، ثم تحرك الركب العظيم فى الصباح إلى مكة ، وقد أعلن النبى صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان مكرمة: أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن! وصدق الله العظيم ، فقد أرسله رحمة للعالمين. ولقد حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن يكون الفتح سلماً كله ؛ فأمر قادة جنده ألا يُقاتلوا إلا من قاتلهم ، فلم يحدث يومئذ قتال إلا ماكان من صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل ابن عمرو ، ومن تابعهم من قريش وبنى بكر الذين قاتلهم خالد بن الوليد بأسفل مكة ، فلم يلبثوا أن فروا منهزمين أمامه بعد مناوشة يسيرة(١).

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع بسهولة بالغة فى العشر الأواخر من رمضان سنة ٨هـ ، واستقر أمرهم فيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رفض النزول فى بيوت مكة طيلة مكثه هناك(٢) فأقام فى خيمة ضربت له ، ثم خرج على راحلته ، فطاف بالبيت سبعاً وتكبيرات المسلمين من ورائه تشق عنان الفضاء(٣) ثم دعا عثمان بن طلحة أمين الكعبة

---

(١) الدكتوران: عبد الشافى عبد اللطيف ومحمد جبر أبو سعدة: التاريخ الإسلامى من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية.

(٢) مغازى الواقدى ج٢ ص٨٢٩.

(٣) الدكتور/ عماد الدين خليل: دراسة فى السيرة ص٢٤٧.

فأخذ منه مفتاح البيت ، ففتحت له فدخلها وكسر أوثانها بيده وطرحها أرضاً ومحا صور الملائكة والأنبياء ، وخرج إلى الأصنام المصفوفة حول البيت، فراح يعمل بها تحطيماً وهم يقول: "قُلْ جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطِلَ كان زَهُوقاً"، وأرسل خالد بن الوليد إلى بطن نخلة ليهدم العزى كبير آلهة المنطقة.

ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة وقد تجمع الناس فى المسجد فخاطبهم قائلاً: (لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصرَ عَبْدَهُ ، وَهَزمَ الأحزابَ وَحْدَه ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب (يَاأيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُم شُعُوباً وقَبَائلَ لتعَارفُوا إنَّ أكْرمكُم عنْدَ الله أَتْقَاكُم). يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ فأجابوه بصوت واحد: خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء).

هذا الموقف السلمى الرائع من رسول الله صلى الله عليه وسلم لابد أن يُلفت انتباهنا وانتباه كل قارىء لتاريخ الفتح أو دارس له ؛ إذ قد أحدثت قريش من آيات الغدر والخيانة ما يستوجب إيقاع أشد العذاب والانتقام بها ، ومن قبل قد سامت هؤلاء المؤمنين أنواع العذاب وقهرتهم وطردتهم من ديارهم ، بل حاربتهم فى مستقرهم الجديد ، كل هذا – فى قياسات الحرب والسياسة القديمة والمعاصرة – كان يستوجب أن يكال لهؤلاء الأشرار بما كالوا به ، ويعاملوا بنفس الأسلوب الذى عاملوا المسلمين به ، وكان يلزم لهذا أن يأتى المسلمون وقلوبهم متقدة بنار الثأر والعصبية والتشفى ، ولكن روح الإسلام وسمو أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم جعلت هذا الحشد المؤمن الهائل يدخل مكة مسالماً،

لاتعتمل فى نفسه أىُ من هذه الضغائن ولا الثأرات السابقة ، والمسلمون جمع عظيم بإمكانه الإطاحة بكل من يوقف زحفه أو يُعرقل مسيرته ، وما كان يمكن لأمة أو جمع مكان المسلمين أن يتنازلوا عن شيىء مما لحق بهم ، أو يغمدوا سيوفهم القاهرة فى قربها ، لولا أن روح الإسلام وتطبيق القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم هى التى أدت إلى هذه النتيجة الباهرة.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علّمه ربه وما استودع قلبه من الحلم والفطنة يستهدف من حرصه على السلم تأليف القلوب وتوحيد كلمتها لتقبل على الإسلام ، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذى آلت إليه وهى سيدة العرب دون منازع ؛ لأنها أعظمهم حضارة ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم مالاً ، وفى بلدها البيت الحرام ، ليس من السهل أن تقبل قريش بمصيرها هذا وتقبل على الإسلام طائعة ، وتحمل رايات الجهاد لَوْ لَمْ تُعامل هذه المعاملة السلمية التى لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس عداوة للإسلام إلى أحرص الناس على رفع راية الإسلام ، وصدق الله العظيم القائل: "إِذَا جَاء نَصْر الله والفَتْحُ ورأيْتَ النَاسَ يَدخُلُون فِى دِين اللهِ أفوْاجاً فَسبِّحْ بِحَمْدِ رَبك واستغفرهُ إنهُ كانَ تَواباً " .

كُتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المُلوك والأمُراء ومُحَاولة البَلاَغ السِّلمى:

اقتضى عموم الرسالة المحمدية أن تبلغ الدعوة كل أقطار الأرض ، وما قصد بالإبلاغ إلا إخبار الناس جميعاً بنبأ دعوة التوحيد وإيقافهم على سمو مبادئها وتكامل منهجها ، وأنها دعوة للخروج من ظلمات الجهالة إلى العلم والمعرفة ، والنبى صلى الله عليه وسلم من أصل مهمته البلاغ ، فهو مأمور به فى قول ربه سبحانه: "يَاأيَهَّا الرَّسُولُ بلِّغْ ماأُنْزِل إليْك منْ ربِّك وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْت رِسَالَتَه .... الخ الآية"(١).

وبعد صلح الحديبية أمن الناس بعضهم بعضاً ، وساروا فى جميع المسالك لايخشون عدوان أحد الفريقين على الآخر ، كما أن سُكون العلاقات بين قريش والمسلمين ، وانتهاء وجود اليهود بالمدينة قد أتاح لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللدعوة الإسلامية مجالاً لانطلاق الدعوة إلى ميدان أوسع ، وخروجها إلى نطاق أرحب.(٢) فى محاولة لمخاطبة العقل الذى استُودع فى الأبدان ، كيما يميل بصاحبه صوب الحق والهدى بعد أن زاغ الناس ، ونأت بهم عن الطريق السوى الجهالات.

وهى محاولة إن صَحَّت نتائجها اتجه الناس إلى مافيه صلاح دنياهم وآخرتهم ،ولما احتيج إلى منازلتهم وحربهم من بعد ، إذ كانت هذه الدعوة العقلية هى الأساس والهدف الأول الذى تُدعى إليه كل الأمم قبل بدء العمليات

---

(١) من الآية: ٦٧ من سور المائدة.

(٢) الدكتوران: عبد الشافى عبد اللطيف ومحمد جبر أبو سعدة: التاريخ الإسلامى من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص١٠١.

الحربية كما أوضحنا سابقاً.

ولو أن الإسلام كان دين عنف وقهر،أو كان نبى الإسلام محباً للعنف والقهر لقبع المسلمون فى ديارهم حتى تكتمل أركان دولتهم،ويصيرون شعباً عنيفاً قادراً على منازلة أقرانه المعاصرين،ثم يطيحون فى البلاد من حولهم نهباً وغصباً واستلاباً،من دون أن يخاطبوا عقول الناس وأفئدتهم،ولما عرضوا قواعد دينهم على العقل ،ولكنه الإسلام الذى يعتمد على المحاجة والإقناع ، حيث يخاطب المولى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: "ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعظِةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بالتِى هِىَ أَحْسَن "(١) كما يشير إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر: "...ولوْ كُنْت فَظاً غليظَ القلْبِ لانفضُوا مِنْ حَوْلِك..."(٢).

كما أن الدعوة إلى الإسلام لم تكن تبغى من ورائها عرضاً دنيوياً ؛ إذ لو كانت كذلك ما كان لها أن تخاطب العقل ؛ لأن مطاولة الناس على حقوقهم وممتلكاتهم لاتنافس بالحجة ، ولا يتنازل عنها بالإقناع ، فما هى إلا دعوة إلى الله تعالى لتوحيده والإقرار بعبوديته ، تؤدى فى النهاية إلى إسعاد البشرية جمعاء وإخراجها من كبوتها وإقالتها من عثرتها التى تتردى فيها منذ أمدٍ بعيد. لكل هذا حق للنبى صلى الله عليه وسلم أن يوجه رسله ويخط كتبه إلى سائر ملوك وأمراء العالم من حوله.

على أن المؤرخين القدامى من المسلمين لم يحددوا تاريخاً ثابتاً متفقاً عليه لهذه السفارات التى وجهها النبى صلى الله عيله وسلم إلى الأمم من حوله ؛

---

(١) من الآية: ١٢٥ من سورة النحل.

(٢) من الآية: ١٥٩ من سورة آل عمران.

فيجعلونها حيناً فى أواخر السنة السادسة للهجرة ، ويجعلونها حيناً آخر فى السنة السابعة أو مابعدها(١) ، إلا أن الالتباس يزول فيما ذكره ابن إسحاق من أن الرسول صلى الله عليه وسلم فرق رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاة إلى الله عزوجل فيما بين الحديبية ووفاته(٢).

وينكر بعض المستشرقين أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسل هذه السفارات أو كتب هذه الكتب ، وهذا الإنكار ربما يكون راجعاً إلى عدم عثورهم على مايدل على شيىء من ذلك فى الوثائق التى خلفها هؤلاء الملوك والأمراء(٣) ، وهذا الإنكار قد يكون مقصوداً به التذرع بأن لم تكن للإسلام ولا للنبى صلى الله عليه وسلم تلك المحاولة السلمية فى بلاغ الناس ، وهذا يُظهر إلى أى مدىً كانت أهمية تلك السفارات والكتب التى تنهض كدليل عَمَلى بارز على حسن النية والوجهة السلمية ، ثم إننا لانستطيع أن نُطالب هؤلاء المُرسل إليهم -آنذاك- أن يحتفظوا بتلك الوثائق التى ربما تكون قد فُقدت لسببٍ من الأسباب أو تَلِفَتْ ، أو أُخْفيت عن قصدٍ لتتوارى معها حُجية الدعوة فى البلاغ. ومن ثم فإنكار البعض لها لاينهض دليلاً على انتقائها ؛ إذ تُجمع كل مصادر التاريخ الإسلامى على ثُبْتها ، وما أولئك المستشرقون إلا نقلة عنها؛ حيث لم يكن عندهم فى ذلك الحين علم ولا دراية كافيين بثُبت التاريخ وتسجيل الأحداث.

---

(١) الدكتور/ عماد الدين خليل: دراسة فى السيرة ص٢٨٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٤٥.

(٣) الدكتور / عبد الحميد بخيت: ظهور الإسلام وسيادة مبادئه ص٢٩٢.

ومن ضمن ماسجله المؤرخون المسلمون في ذلك مارواه الطبري حيث يقول:.... وحدثنا ابن حميد قال: حدثني ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب المصري أنه وجد كتاباً فيه تسمية من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الخائبين (الكفار) ، وما قال لأصحابه حين بعثهم ، فبعث به (أي الكتاب) إلى ابن شهاب الزهري مع ثِقةٍ من أهل بلده فعرفه. وفي الكتاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ذات غداةٍ فقال لهم: إني بعثت رحمة للناس كافة. فأدُّوا عني يرْحمكم الله ، ولا تختلفوا عليَّ كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم. قالوا يارسول الله ، وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعاهم إلى مِثْل مادعوتكُم إليه ، فأما من قرب به فأحب وسلم ، وأما من بعد به فكَرِه وأبَى ، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عزوجل ، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم. فقال عيسى: هذا أمْر قد عزم الله لكم عليه فامضوا ، قال ابن إسحاق : ثم فرق الرسل صلى الله عليه وسلم أصحابه(١).

وقد اختار النبى صلى الله عليه وسلم للقيام بهذه المهام أنْسب الرجال وأصْلحهم من بين أصحابه ، واتخذ لنفسه خاتماً تُخْتم به الرسائل كان نقْشه "مُحمد رسُول الله" ، وكان نَصُّ الكتاب الذي أرسله إلى هرقل: "بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم. السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، أسْلم تَسْلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتولى فإن إثم الأكارين (الأريسيين) عليْك(٢) (يَاأهْل الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٤٩.

(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص٦٤٩.

كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم ألا نعْبد إلا اللهَ ولا نُشْرك بِـهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخـذَ بعضنـا بعضـاً أرْبابـاً مـنْ دُونِ اللـه فـإن تَوَلـوْا فَقولـوا اشْـهدُوا بأنـا مُسْلمُون)(١).

وكتب إلى المقوقس: "بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول اللـه إلـى المقوقس عظيمُ الأقباط. سلامٌ على من اتَّبع الهُدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعايـة الإسلام ، فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين(ياأهْل الكِتابِ تَعَالَوْا إلـى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم .. الآيـة). وكتب إلـى النجاشـى: بسم اللـه الرحمـن الرحيم. من محمد رسول الله إلـى النجاشـى الأصْحم ملـك الحبشـةِ . سلام أنت فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسـى ابن مريم رُوح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبـة الحصينـة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخـه ، وإنـى أدعـوك إلـى الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فأقِرَّ ودَعِ التجبر فـإنى أدعـوك وجنـودك إلـى اللـه: فقد بلغت ونصحت فـاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى".

وكتب إلى كسرى أبرويز ملك الفرس مانصه: "من محمـد رسـول اللـه إلـى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعـوك بدعاية الله عزوجل ، فـإنى رسـول اللـه إلـى النـاس كافـة ولأنـذر مـن كـان حيـاً ويحق القول على الكافرين ، وأسلم تسلم ، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك".

ونحن إذ تأملنا نصوص هذه الرسائل نجدها تحوى كثيراً من الملامح الجديـرة بالملاحظة.

---

(١) من الآية: ٦٤ من سورة آل عمران.

الملمح الأول: أنه صلى الله عليه وسلم أخذ فى دعوته مسلك الحكمة والموعظة الحسنة ، ولم تظهر فى كلامه فظاظة ولا غلظة ولا اتجاه نحو الإثارة والترهيب.

الملمح الثانى: أنه يُعطى لكل منهم قدْره ولا ينتقص منهم شيئاً ، حيث خاطبهم بما هُم عليه من المُلك والزعامة والشرف ، ولم يتَطَاول عليهم بأنه النبى المُطاع وهم دونه لاشيىء ، واحتفظ لهم بمنازلهم وصدارَتهم فى شعوبهم.

الملمح الثالث: تأكيد لهم أنهُ متممٌ لَمَا جاءتهم به أنبياؤهم ، وأن الإسلام يقر رسالاتهم السابقة ، وأنبياؤهم إخوانه.

الملمح الرابع: يَرْجوهم أن يُعملوا عُقولهم ، وألا يشتطوا فتزيغ بأفعالهم أُممهم، ويكونون متحملين لهذا الإثم.

الملمح الخامس: يظهر فى دعوته أن من يدخل فى دين الله فهو كالمسلمين سواء بسواء ولا أثر لما كان منهم من قبل فالإسلام يَجُب كل ماكان قبله.

الملمح السادس: جاءت كتبه صلى الله عليه وسلم فى مُجملها رسالة سِلْمية تدعو إلى الإسلام ، وهى دعوة لوْ صادفت نجاحاً أو لاقت قبولاً فى نفوس هؤلاء الملوك والأمراء لتفادت أمَمْ العالم آنذاك تلك الحروب والمنازلات التى قامت من بعد.

* خاتمـة البحـث *

كانت هذه محاولة لاستكشاف الملامح الحضارية والإنسانية التى لازمت عملية الفتوحات الإسلامية ، كما لازمت دوافعها ومقدماتها ، فكانت هذه نُقلة تاريخية قُصِدَتْ بها البشرية جمعاء ، بعد أن تنكبت فى علاقاتها ومعاملاتها ، وسادتها الفوضى والهمجية ، وقبحت أفعالها فى تحديد علاقاتها حتى صارت الحياة البشرية قُبيل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم صورة مُنفرة تستدعى من ينقذها ويُخلصها مما هى فيه.

ولم تكن تلك الصورة تقتصر على جانب مُعَين فى حياة البشرية ، بل شملت جميع جوانبها ، الدينية والاجتماعية والسياسية والحربية ، فكانت دعوة الإسلام هى الضياء المتسلل فى دياجير الظلام الحالك ، والرشاد الهادى إلى ما فيه صيانة النفس والعقل والحياة ، وتُنظم مفهوم العلاقات ، وكانت الدعوة عامة ، غير مخصوصة بقوم ، ولا محصورة فى مكان أو زمان.

وقد هَدِفْت من وراء هذه الدراسة إلى بيان المعانى السامية والمُثل الرفيعة التى أرْساها نبى الإنسانية صلى الله عليه وسلم وطبقها من بعده بصدق صحابتُه الأجلاء فى مجال العلاقات الإنسانية ، وتقنين أساليب القتال ، مما لم يكن له أدنى أثر من قبل.

وقد يدور فى نفوس البعض تساؤل ، فيقول: وهل للحرب أبعاد وملامح إنسانية وحضارية يجب التزامها ؟ ظنا منهم أن الحروب بين الأمم والدول إذا ما اشتد لظاها – بصرف عن دواعيها – فإنها لاتستدعى إعْمال عَقْل ، أو تَوَخِّى شفقة ، أو استنفار ضمير ! وهم يذهبون إلى ذلك من منطلق ماعايشته البشرية قبل الإسلام ، ومازالت تمارسه فى صراعاتها حتى الآن حيث يَنْصب هَمُّ كل فريقٍ من المقاتلين إلى قهْر الآخر واستذلاله والتشفى فيه.

وهؤلاء مخطئون – بالقطع – فى ذلك ؛ فها هو الإسلام الداعى إلى السلم يستلزم للحرب وُجودَ الدافع أولاً ، بحيث يكون هذا الدافع ضرورة لاتنفك منها الأمة إلا بالحرب ، فإذا ما اقتتل الفريقان فهناك أبعاد يلزم مراعاتها ؛ فلا يقاتل إلا المقاتل ، ويترك الشيوخ والنساء والصبية ، ولا تكون الحرب دماراً وتخريباً لعوامل بقاء الأمم ، فلا يحرق زرع ، ولا يُعقر نَخْل ، ولا تُستحل أموال العدو إلا فى حدود الحاجة والمنفعة ، فإذا نهض داعى العقل وَجَبَتْ تلبيته من أجل الوصول إلى حلٍ يوقف نزيف الدم، وحتى بعد المعركة تكون هناك معاملة إنسانية كريمة للأسرى والسبايا فَهُم فى المقام الأول والأخير بشرٌ دفعت بهم الظروف إلى ما صَارُوا إليه.

وبناء على ماسبق يمكننا أن نخلص إلى النتائج التالية:

أولاً: أسست الفتوحات الإسلامية قواعد جديدة للحرب وآدابها لم تكن معهودة من ذى قبل ، وكانت البشرية من صميم أعماقها فى حاجة إلى مثل ذلك ، لولا دوافع الحقد والغطرسة التى انتابت غير المسلمين ، فلم يفطنوا – بقصد أو بدون قصد – إلى ماجاء له الإسلام والتزم تطبيقه النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده.

ثانياً: كشفت حروب الفتح كل ما سبقها من حروب مريرة بين الأمم من حيث: نَبْل الهدف والغاية ، وأخلاقيات الوسيلة ، وقُوة الدافع فى داخلية نفس المحارب. وكل هذه المعانى لمسها أعداء الإسلام ولفتت انتباههم، وتناقلوا الحديث عنها فى عجب واندهاش.

ولنا إذن أن نسألهم: لماذا يفترون على الإسلام ويتهجمون على فتوحاته ؟! والإجابة سهلة وميسورة ، نوجزها فى عدة نقاط:

الأولى: أن شعوبهم لم تُوفق مع أنبيائها ؛ ولم يستطيعوا إقامة الدولة الدينية والسياسية المتوازنة ، التى تحقق العدل والإحسان بين الناس ، مُنصرفين عن

حدود الشرائع إلى قوانين النفس والهوى.

والثانية: أن هذه الشعوب قد أرهقت فى جاهليتها وذاقت الأمرين ؛ مرة بسبب الساسة الذين أهدروا دماء شعوبهم رخيصة فى حروب لاتنقطع ولا سبب لها !، ومرة بسبب رجال الدين الذين ملكوا منهم الدنيا والآخرة ، وسحبوهم خلفهم يلهثون طلباً للنجاة على أيديهم.

الثالثة: كانت سيادة الإسلام وظهور دولته فيما لم يَقُم له نظير أو شبيه من قبل مثَارَ الحقد والضغن والتزيُّد المُفْترى من جانب هؤلاء على الإسلام والمسلمين ، ولو هدى الله هؤلاء المفترين إلى رحاب هذا الدين الحنيف لقالوا غير ماتقولوا، ولكن عَمِيَتْ فى عيونهم الأبصار وفى قلوبهم البصائر ، فهاهم يترجمون كل ماتضيق به نفوسهم وتئن منه قلوبهم فى صورة طعْنٍ وإفْكٍ يدَّعونه لينالوا من قدر الإسلام والمسلمين.

الرابعة: أن هذا الحقد والضغن على الإسلام والمسلمين يَظْهر منهم فى كل مقام وآن بصورة البشعة ، لا يتورعون عن التدنى ، ولا يميليون إلى تحرى العقل ، فهاهم فى كل حروبهم مع المسلمين منذ بدء الحروب الصليبية وحتى الآن ، يميلون على المسلمين قتلاً وتشريداً وإجحافاً ، وهم الذين يَدَّعون ويتباهون بأنهم صانعو مجد وأصحابُ حضارة ، ويتهمون المسلمين بالتخلف والتقهقر ، متناسين عن عَمْد تلك الحضارة الإسلامية العالمية التى ازدهرت ونقلت الدنيا من عُصور الظلمة إلى حياة النور ، ثم يَدَّعون الاهتمام بحقوق الإنسان ومشكلاته ، وكلها شعارات جوْفاء وادعاءات واهمة ، ولن نستطرد فى سردها هنا حيث لايتسع لها المقام ، إنما يكفينا شاهداً عليهم فى زمننا الحاضر تلك المأساة التى صنعوها للإسلام والمسلمين فى البوسنة والهُرسك ، وهو نموذج شاذ فى حياة البشرية ؛ لم يترفعوا عن التدنُس بأوحاله ، أو يتذكروا ما يدَّعُونه من مُسميات إنسانية جوفاء.

ويجب على المسلمين أن يَصْبُروا لِقَدَرِهِمْ ، وَيعْلموا أن هذه هى نظرة عَدُوهم لهم ما دام على وجه البسيطة إنسان يَدِينُ بالإسلام ، وسوف يأذن الله بالفرج ، ويأتى بالنصر للإسلام والمسلمين ما التزموا المنهج وأخلصوا فى العبودية ، وسوف تظل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

والحمد لله أولاً وآخراً ، فهو الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

* * * *

مصادر ومراجع البحث(١)

أولاً: المصادر العربية المطبوعة.

١- القرآن الكريم.

ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد عبد الكريم(ت٦٣٠هـ).

٢- الكامل فى التاريخ ... طبعة بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

ابن بطريق: سعيد بن بطريق (البطريرك):

٣- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ... الجزء الثانى بيروت ١٩٠٩م.

الإمام البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ):

٤- صحيح البخارى .. طبع لجنة إحياء كتب السنة . القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على (ت ٨٥٢ هـ):

٥- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ... طبعة دار الريان للتراث . (طبعة أولى) القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

الخضرى: محمد الخضرى (الشيخ).

٦- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ... طبعة دار إحياء التراث. (طبعة ثالثة) ١٩٨٠م.

---

(١) روعى فى ثبتها الترتيب الهجائى.

الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).
٧- تاريخ الرسل والملوك ... تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
دار المعارف بمصر (طبعة رابعة) ١٩٧٩م.
قدامة بن جعفر بن قدامة (ت ٣٢٩ هـ):
٨- الخراج وصناعة الكتابة ... تحقيق د: محمد حسين الزبيدى بغـــــداد ١٩٨١م.
القرطبى: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى.
٩- الجامع لأحكام القرآن ... دار الريان للتراث . القاهرة (د.ت).
ابن القيم: شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر (ت ٧٥١ هـ):
١٠- زاد المعاد فى هدى خير العباد: تحقيق وتعليق: شعيب الأرنـــــؤوط وعبد القادرالأرنؤوط (طبعة خامسة عشر)بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م
ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ):
١١- تفسير القرآن العظيم.
١٢- قصص الأنبياء...(طبعة أولى) القاهرة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
الأمام مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى (ت ٢٦١ هـ)
١٣- صحيح مسلم بشرح النووى ... بيروت (د.ت).
الواقدى: محمد عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ):
١٤- مغازى الواقدى ... تحقيق د: مارسدن جونس. بيروت (د.ت).
أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم الأنصارى (ت ١٨٢ هـ).
١٥- الرد على سير الأوزاعى ... بيروت (د.ت).
١٦- كتـــاب الخـــراج ... المطبعة السلفية (طبعة سادسة) ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢ هـ):
١٧- تاريخ اليعقوبى ... دار صادر . بيروت (د.ت).

ثانياً المراجع العربية

أحمد حسين:
١٨- نبى الإنسانية .. طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ١٩٧٠م.

أبو الأعلى المودودى:
١٩- شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية .. ترجمة د: سمـــير عبد الحميد إبراهيم. (طبعة أولى) ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

بتلر: الفريد. ج: (الدكتور):
٢٠- فتح العـــرب لمصر ... تعريب: محمد فريد أبو حديد. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٩م.

جورجى زيدان:
٢١- تاريخ التمدن الإسلامى ... طبعة بيروت (د.ت).

حامد محمد على (الشيخ):
٢٢- الجهاد فى ضـــوء الكتاب والسنة ... من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣م.

توماس أرنولد (السير):
٢٣- الدعوة إلى الإسلام (بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية) ترجمة د/ حســــن إبراهيم حسن ، د/ عبد المجيد عابدين . (طبعة ثالثة) القاهرة ١٩٧٠م.

ستيفن رنسمان:
٢٤- تاريخ الحـــــروب الصليبية... تعريب د. السيد الباز العرينى(طبعة ثانية) بيـروت ١٩٨١م.

سعيد عبد الفتاح عاشور(الدكتور):
٢٥- أوروبا العصـــور الوسطى..الجزء الأول. مكتبة الأنجلو المصرية (طبعة خامسة) ١٩٧٢م.

السيد محمد يونس (الدكتور):
٢٦- الفتوحـــــات وأثرها فى نشر الإسلام..(طبعة أولى) المنصورة ١٤١٢هـ/١٩٩٢

عبد الحميد بخيت (الدكتور):
٢٧- ظهور الإسلام وسيادة مبادئه..(طبعة ثانية) دار المعارف بمصـــر ١٩٦٧م.

عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، محمد جبر أبو سعده (الدكتوران):
٢٨- التاريخ الإسلامى من ظهور الإسلام حتى سقوط الـدولة الأمـــوية سنـــة ١٣٢هـ... القاهرة ١٩٨٧م.

عبد الفتاح شحاتة (الدكتور):
٢٩- محمـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرآة الفكر الأجنبى .. القاهـرة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

عبد المتعال محمد الجبرى:
٣٠- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ... مكتبة وهبة بالقاهـــــرة (طبعة أولى) ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

عماد الدين خليل (الدكتور):
٣١- دراسة فى السيرة ..(طبعة ثانية عشر) بيروت ١٤١٢ / ١٩٩١م.

عمر لطفى العالم:
٣٢- المستشرقون والقرآن.. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى (د.ت).
غوستاف لوبون (الدكتور):
٣٣- حضارة العرب ... ترجمة: عادل زعيتر. الحلبى بمصر ١٩٦٩م.
فايد محمد حماد (الدكتور):
٣٤- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ... (طبعة أولى) بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
فان فلوتن:
٣٥- السيادة العربية فى عهد بنى أمية. ترجمة د: حسن إبراهيم حسن و محمد زكى إبراهيم. (طبعة أولى) القاهرة ١٩٤٣م.
ف.بارتولد:
٣٦- تاريخ الحضارة الإسلامية ..... ترجمة: حمزة طاهر.
دار المعارف بمصر (طبعة خامسة) ١٩٨٣م.
فيليب حتى (الدكتور):
٣٧- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين..ترجمة د: جورج حداد ، عبد الكريم رافق بيروت ١٩٥٨م.
كيرك:
٣٨- موجز تاريخ الشرق الأوسط ... ترجمة: عمر الإسكندرى.القاهرة (د.ت).
محمد جمال الدين محفوظ (اللواء):
٣٩- المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية.. دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٦م.

محمد سعيد رمضان البوطى (الدكتور):
٤٠- فقه السيرة .. دار الفكر بالقاهرة (طبعة سابعة) ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م.
محمد عزت الطهطاوى (المستشار):
٤١- محمد (صلى الله عليه وسلم) فى التوارة والإنجيل والقرآن .. مكتبة النور بالقاهرة (طبعة ثانية) ١٩٨٦م.
محمد فتح الله الزيادى:
٤٢- انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ...... (طبعة أولى). بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
محمد ياسين مظهر (الدكتور):
٤٣- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى..ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم. من مطبوعات رابطة الجامعات الإسلامية (د.ت)
الندوى (السيد أبى الحسن على الحسينى):
٤٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟..(طبعة ثامنية) دار نهر النيل بالقاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
ول وايزيل ديورانت:
٤٥- قصة الحضارة ... ترجمة: فؤاد اندراوس . القاهرة ١٩٨٦م.
ل.أ. سيديو:
٤٦- تاريخ العرب العام ... تعريب: عادل زعيتر . (طبعة ثانية) الحلبى بالقاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
٤٧- خلاصة تاريخ العرب ... (طبعة ثانية) بيروت ١٤٠٠هـ.
لوارفيشيا فاغليرى (الدكتورة):
٤٨- دفاع عن الإسلام ... تعريب: منير البعلبكى. (طبعة خامسة) بيروت١٩٨١م.

ثالثاً: الدوريات:

أحمد إبراهيم الشريف (الدكتور):

٤٩- الفتوح الكبرى فى عهـــد عمر بن الخطاب ... بحث منشور فى مجلـــة منـــبر الإسلام رجب ١٣٨٥هـ/ أكتوبر ١٩٦٥م.

أنور الجندى:

٥٠- عالمية الإسلام ..... مقال منشور فى مجلة منبر الإسلام. رجب ١٣٩٢هـ/ أغسطس ١٩٧٢م.

سالم محمد غانم (الدكتور):

٥١- عالمية الإسلام ..... مقال منشور فى مجلة منبر الإسلام. رمضان ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

عائشة عبد الرحمن (١)(الدكتورة):

٥٢- الرسالة الحضارية للإسلام (صلح الحديبية وبيعة الرضوان) مقـــال منشور بجريدة الأهرام المصرية ص٨ الخميس ١٩٩٣/٧/٢٩م.

٥٣- قبل الهجرة فتحت يثرب بالقرآن .. مقال بجريدة الأهرام المصـرية رمضان ١٤١٣هـ.

عبد المنعم محمد الشيخ:

٥٤- الحرية فى الإسلام ... مقال منشور فى مجلة الوعى الإسلامى. العدد (٥٠) صفر ١٣٨٩هـ/أبريل ١٩٦٩م.

محمد عبد العليم العدوى (الدكتور):

٥٥- صلـــح الحـــديبية ...

بحث منشور فى مجلـة الأزهـر رمضـان ١٤١٣هـ /مـارس ١٩٩٣م.

---

(١) بنت الشاطىء .

محمد الغزالى (الشيخ):

٥٦- عالمية الرســالة بين النظرية والتطبيق ... مقال منشور فى مجلة الــوعى الإسلامى العدد (١٥٠) لسنة ١٣٩٧ هـ.

مغاورى عبيد منصور (الدكتور):

٥٧- مؤتمــر السقيفة والديمقراطية الحديثة ... بحث منشور فى حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ١٩٩١/١٩٩٢م (المجلد الثانى).

فهرست الموضوعات

رقم الإيداع:٩٣/٩١٢٦
الترقيم الدولى:3 - 10 - 5316 - 977

مكتب جى جى كو للطباعة
قسم الحكماء ، كوبرى ام عثمان